الصورة الفنية للكرم عند شعراء المفضليات

للضبى (ت ١٧٨هـ)

د. فردوس نـور علـى حسين

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، علّم الإنسان ما لم يعلـم ، والصـلاة والسـلام علـى أشرف المرسلين مَنْ أُوتى جوامع الكلم وقال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى .

أما بعد ،

فإن الشعر سجلٌّ حافل لتاريخ الأمة وعاداتهـا وتقاليدهـا ، والشـعر العربـى يحمل سمات المجتمع وعاداته ويؤرخ لصفاته ومن هنا كانت دراسـة الشـعر العربـى فى عصوره الأولى بياناً لهذه الخصائص والصفات .

ويعد شعر المفضليات للضبى معبراً عن ذلك أصدق تعبـير ، وقـد آثـرت أن أتحدث عن صفة من صفات العرب وخصلة حميدة مـن خصـالهم وهـى " الكـرم " فتتبعت حديث شعراء المفضليات عنها وهو حديـث متنـاثر هنـا وهنـاك ، ودأبـت بالبحث والدرس على استخلاص هذه الصفة من خلالـه ، وقـد وصفـت الظـاهرة وتناولت الصورة الفنية بجوانبها المتعددة من خلال هذا الوصف ، وما كان للشعراء فيه مـن قـدرة على الإبـداع ومـا توافـر لهـم مـن أدوات اللغـة ودقـة اسـتعمالها ،

وعرضت ذلك على مقاييس النقد الأدبى القديم والحديث لأجلى معالم الصورة الأدبية وأبرز سرّ جمالها الفنى .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما أهدف إليه ، والله ولىّ التوفيق .

التعريف بالمفضليات :

كان اختيار الشعر قديماً يقوم على أساس جمع أشعار القبائل فيجمع شعر الشعراء الذين ينتمون إلى قبيلة واحدة فى كتاب واحد .

وينسب إلى المفضل بن محمد بن يعلى الضبى الكوفى اللغوى - المتوفى على أرجح الآراء سنة ١٧٨هـ - اختيار الشعر فيما عرف باسم (المفضليات) وهى عبارة عن ثلاثين ومائة قصيدة يقال إن سبعين منها قد اختارها إبراهيم بن عبد الله ابن حسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه (توفى سنة ١٤٥هـ) حينما كان متوارياً عند المفضل ، وقد اختارها من كتب الشعر التى أحضرها له المفضل الضبى، ويقال : إن المفضّل زاد على هذه السبعين عشر قصائد فأصبحت ثمانين فأدب الضبى بها المهدىّ بعد أن ألزمه أبو جعفر المنصور بتأديبه ، وقيل : إنه زِيد فيها إلى أن صارت ثمانية وعشرين ومائة وقد تزيد وقد تنقص .

وأطلق عليها اسم المفضليات ، وقد ذكر ذلك أبو الفرج الأصفهانى(١) وأبو على القالى(٢) وابن النديم(٣) وهى من عيون شعرالجاهليين والمخضرمين.

* * *

---

(١) انظر : كتابه " مقاتل الطالبيين " ص٢٧٢ و ٣٣٩ .

(٢) الأمالى ط. دار الكتب ٢ / ١٣٠ .

(٣) الفهرست ط. مصر ص١٠٢ .

الكرم عند شعراء المفضليات

الكرم سمة بارزة فى البيئة العربية التى كانت تقوم على الحل والترحال وما يواجه الإنسان فيها من مشقات تحتاج إلى أن يمد الغنى يده إلى الفقير وقد انتشر الكرم فى البيئة العربية وكان الأدب معبراً عن ذلك أصدق تعبير فى العصور الأولى للأدب العربى ففى العصر الجاهلى وصدر الإسلام عرض الشعراء صوراً كثيرة لكرماء العرب فى ذلك الوقت وكيف كانوا ينفقون أموالهم فى مساعدة المحتاجين وللأصدقاء والجيران والوافدين من الضيوف وكانت باعهم فى ذلك طويلة واسعة فى مروءة غير معهودة لغير العرب إذ كانوا يقدمون على بذل المال وإنفاقه ولا سيما ما كانوا يملكونه من الماشية والإبل والخيل والماعز إلى غير ذلك مما كانوا يملكونه فيقدمون لحومها وألبانها ويبذلونها رخيصة بصدر رحب غير مبالين بلوم اللائمات واللائمين فى ذلك الوقت وبخاصة المرأة سواء أكانت زوجة أم أماً أم أختاً أم جارة أم صديقة ، فالمرأة لا يعنيها بذل المال لما فى طبيعة معظمهن من ميل إلى حُسْن التدبير أو الضّنّ به حرصاً وإشفاقاً ، فالأمر عندها مختلف عن حال الرجل الذى يسعى عادة إلى حُسْن الأُحدوثة مع ما يعنيه اهتمامه بالفضائل من أثر طيب ولا سيما عند القبائل العربية .

ولا شك أن الكرم من الفضائل الخلقية التى جاء الإسلام فأقرها وأثنى عليها ودعا إلى التمسك بها فقد حث الإسلام على بذل المال وإنفاقه فى وجوه الخير فى آيات كثيرة من القرآن الكريم سواء أكان ذلك إنفاقاً عاماً على سبيل الصدقة والكرم ونحوه أم بإخراج الزكاة ومدح المؤمنين بإنفاق المال كقوله تعالى : ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾(١) ، وكقوله تعالى: ﴿ الذين يؤمنون

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٧٤

بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾(١) وكقوله سبحانه : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾(٢) وتكررت الآيات فى شأن الزكاة كثيراً كما أن الأحاديث النبوية تحث كثيراً على الإنفاق فى الخير وبذل المال سواء أكان ذلك فى نطاق الأسرة أم خارجها ، قال ﷺ : (من كان يؤمن با لله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)(٣) وقال ﷺ : (اتقوا النار ولو بشق تمرة)(٤) .

ولذلك وجدنا شعراء الجاهلية والإسلام يتضافرون على التنويه بالكرم وبخاصة فى زمن القحط والجدب حيث يظهر الأثر الكبير للكرم فى هذه الأوقات أكثر من غيرها حين يمسك الناس على ما معهم خوفاً عليه وتشبثاً به نجد المطبوعين عل الكرم يقدمون ما عندهم لمساعدة المحتاج ومن يطلب المساعدة ولطارق الليل الذى يلجأ إليهم غير مبالين بما يلحقهم من ضرر لكثرة عطاياهم فهم ينظرون إلى المال على أنه يأتى ويزول ولا يبقى إلا حسن الذكر بين الناس والجزاء الأوفى عند ا لله فالإنسان سيموت لا محالة ولا ينفعه إلا ما قدم من عمل الخير ومساعدة غيره من الناس .

وحين ننظر فى الشعر الواقع فى المفضليات نجد مجالاً خصباً وشعراً وافراً يصور الكرم فى البيئة العربية ويوضح أسباب هذا الكرم التى تقوم على أساس

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣

(٢) سورة المعارج : الآيتان ٢٤ ، ٢٥

(٣) روى عن أبى هريرة رضى ا لله عنه . متفق عليه . انظر : دليل الفالحين لابن علان الصديقى ج٣ ص١٨٤ .

(٤) روى عن عدى بن حاتم رضى ا لله عنه . متفق عليه . انظر : دليل الفالحين ج١ ص٣٧٥.

الأصل العربى المطبوع على الكرم وأنه ينشأ عند ذوى الأحساب العالية والأمجاد والمفاخر .

ومن دراستنا لهذا الشعر يتبين أنه يضم ثلاثة ألوان من الأغراض الشعرية وهى الفخر بالكرم سواء كان الفخر من الشاعر نفسه الذى يتصف بالكرم ويبرز هذا الجانب عنده مؤكداً له بالأدلة التى تبرهن عليه أو كان فخراً للشاعر بقبيلته التى تتصف بالكرم وأصالتها فى ذلك كما لاحظنا أيضاً المدح بالكرم بأن يمدح شاعر بعض الناس به ويبين الصفات الجليلة التى يتصف بها الممدوح وأحياناً يتسع وصف الشاعر فيشمل قبيلة الممدوح وأصالتها فى هذه الصفة المحمودة .

كما أن بعض الشعراء يوصى ذويه كابنه أو أهله بأن يكون كريماً فينال شرف آبائه وأجداده فى ذلك وفى كل هذه الأحوال وجدنا عناصر المدح بالكرم تتمثل فى بذل المال وتقديم الطعام وقضاء الحقوق وتحمل الديات وغيرها وفى ذلك تساق الإبل للنحر أو تقدم هدية للمحتاجين والأصدقاء والجيران والضيوف وغيرهم ونشرح ذلك بالتفصيل فيما يلى :

فخر الشاعر بكرمه :

المطالع للمفضليات يجد عديداً من الشعراء يفخرون بما لهم من صفات محمودة ويضعون بين هذه الصفات وصفهم لأنفسهم بالعطاء الواسع للمحتاجين وغيرهم من الأقارب والأصحاب وينوهون بجودهم فى أوقات الأزمات والشدة فهذا عبد الله بن سلمة الغامدى(١) يفخر بأنه يعطى أقاربه وأصحابه ويمد لهم يد

---

(١) هو عبد الله بن سلمة بن الحرث بن عوف بن ثعلبة بن عامر بن ذهل بن مازن بن ذبيان وينتهى نسبه إلى يعرب بن قحطان، والغامدى نسبة إلى غامد وهو جده الأعلى عمرو بن كعب.

العون فى الوقت الذى ينصرف فيه ذوو اليسار عن صحابهم ولا يبدو منهم الخير ولا تتحرك فيهم الأريحية والشاعر تتحرك نفسه إلى الكرم وتفيض به ففى الأزمات لا يتوانى عن مساعدة من يحتاج للمساعدة فى هذا الوقت الذى يقل فيه المال والخير وفى سنى الجدب والقحط فهو كريم فى أحلك الظروف وقت يبخل الناس بما عندهم خوفاً على أنفسهم وأهلهم من الهلاك يقول :

وذى رحمٍ حبوتُ وذى دلالٍ(١)
من الأصحاب إذ خَدَعَ الصُّحُوبُ

ألاَ لم يَرْثُ(٢) فى اللزبات(٣) ذَرْعى
سواف المالِ والعامُ الجديبُ(٤)

وهذا سنان بن حارثة المرى(٥) يتحدث عن كرمه فهو جواد فى أوقات البرد الشديد القارص التى تحتاج إلى إعداد الطعام للجائعين فيقدم الشاعر على ذبح الجياد من الإبل التى نقص لبنها وازداد شحمها ولحمها وهو فى هذا الباب مقدّم على غيره وهو أوسعهم كرماً يذهب غيره بالإبل إلى الحظائر حماية لها من شدة

---

(١) أدل عليه : وثق بمحبته فأفرط فى الدلال عليه .

(٢) رَثى رَثْياً ورَثًى : أصابه ضعف وفتور .

(٣) اللزبات : الشدائد والأزمات واحدتها لزبة - الذرع : الطاقة والبسطة - سواف المال - بفتح السين وضمها - : موته .

(٤) المفضليات ص١٠٥ والقصيدة من الوافر .

(٥) هو سنان بن أبى حارثة بن مرة وينتهى نسبه إلى مضر وهو شاعر جاهلى عرف بالفروسية وله مواقف مشهودة فى أيام العرب كيوم داحس والغبراء وغيره وابنه هرم الذى مدحه زهير بن أبى سلمى وقيل : إنه بلغ مائة وخمسين سنة .

البرد وهو يقدِّم هذه الإبل طعاماً سائغاً للقريب والبعيد من الجيران وطالبى العطاء لا يبخل بشىء ولا يبقى على شىء مدخراً له وإنما يذهبه كله فى إطعام المحتاجين ، ومن صفات الشاعر أنه يبرز زاده ويعرضه فى نفع قومه أو غيرهم ففى وقت الحروب والشدة حين يضيق الحال بالناس ويفنى زادهم أو يقل يقدّم كل ما عنده من زاد ولا يبخل به وهذا غاية الكرم والإيثار وحب الخير وتخليص النفس مما يعلق بها من حب المال والشح به ولا سيما فى وقت الكرب والقحط والضيق يقول :

وقد يسرتُ إذا ما الشَّوْل روّحها ... بَرْدُ العشى بشفيانٍ وصُرَّادِ(١)

ثمتَ أطعمتُ زادى غير مُدَّخِرٍ ... أهل المحلة من جار ومن جادِ

وقد دفعتُ و لم أجْرُرْ على أحدٍ ... فتق العشيرةِ والأكفاءُ شُهَّادِى

قد يعلم القومُ إذ طالت غزاتهم ... وأرملوا الزادَ أنى مُنْفِدٌ زادى(٢)

وهذا الحرث بن ظالم(٣) يصل كرمه الذى يفخر به إلى إعطاء البعير لصاحبه دون مقابل يقول :

وحَشَّ رواحةُ القرشىُّ رَحْلِى ... بناقته ولم يَنْظُرْ ثواباً(٤)

---

(١) الشفيان والصراد : ريح باردة . يريد أنهم أراحوا إبلهم عشاء إلى الحظائر من شدة البرد .

(٢) المفضليات ص٣٥٠ ، ٣٥١ والقصيدة من البسيط .

(٣) هو الحرث بن ظالم المرى من بنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان وينتهى نسبه إلى مضر كان شجاعاً ضرب به المثل (أفتك من الحرث بن ظالم) .

(٤) يقال : " حش زيداً بعيراً وبعير " : أعطاه إياه ، وهذا المعنى انفرد به صاحب القاموس . وانظر المفضليات ص٣١٥ .

ويصف المثقّب العبدى(١) نفسه بالإحسان إلى الجيران والحفاظ عليهم ورعاية حقوقهم فهو من أصحاب المبادىء والقيم الذين يعرفون الحقوق والواجبات ويحسنون إلى جيرانهم وهى فضيلة يتمدح بها الشاعر ولعلها فى البيئة العربية أمر مهم فى مجتمع يحتاج إلى التعاون والتآلف وأن يشدّ الجار أزر جاره وألا يخذله أو ينال منه يقول :

أُكرم الجارَ وأرْعَى حقه ... إن عرفان الفتى الحق كرم(٢)

ونرى معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب(٣) يتحدث عن بذل المال فى الديات والحقوق ويجعل نفسه مثلاً يحتذى لمن يراه من أصحاب الحكمة والعقل ليدافعوا عن الحقوق ويتحملوا ما لا يستطيع تحمله غيرهم وهو فى هذا يضرب المثل لقبيلة بنى كلاب لكى تتحمل وتعقل عن غيرها وبذلك يرفعون الشدائد عن الناس لما يقدمون من عطاء وما يبذلون فى أداء الحقوق والديات ولا سيما فى أوقات المصائب والأزمات يقول :

حملت حمالة القرشى عنهم ... ولا ظلماً أردتُ ولا اختلاباً(٤)

أُعَوِّدُ مثلها الحكماءَ بَعْدِى ... إذا ما الحق فى الأشياعِ نابا

---

(١) المثقب بكسر القاف : لقبه واسمه عائذ الله بن محصن بن ثعلبة بن وائلة بن عدى وينتهى نسبه إلى نزار . شاعر جاهلى فحل .

(٢) المفضليات ص٢٩٤ والقصيدة من الرمل .

(٣) هو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة وينتهى نسبه إلى مضر لقب (معوّد الحكماء) لقوله (أعوّد مثلها الحكماء بعدى) .

(٤) الاختلاب : الخديعة .

سبقت بها قُدامة أو سُمَيْراً(١) ولو دُعِيَا إلى مثلٍ أجابا

وأكفيها معاشر قد أرتهم من الجرباءِ(٢) فوقهم طِبابا(٣)

تهِرُّ(٤) معاشرٌ منى ومنهم هَرِيرَالناب حاذرت العِصَابا(٥)

سأحملها وتعقلها غنىٌّ وأُورِثُ مجدها أبداً كلابا

فإن أحمد بها نفسى فإنى أتيت بها غداتئذٍ صواباً

وكنت إذا العظيمة أفظعتهم نهضت ولا أدِبُّ لها دِبابا(٦)

بحمد الله ثم عطاء قوم يفكونَ الغنائمَ والرِّقابا(٧)

ويقول المرار بن منقذ(٨) : إنه يخرج من إبله فى الديات وقضاء الديون ونحوها فضلاً عن أنه يأتى عليها لنحرها وتقديمها فى ولائم الكرم والضيافة وهذا كرم واسع ، يقول مخاطباً امرأته أم الخنابس التى رأت كرمه فبهرها وعاتبته عليه :

---

(١) قال التبريزى فى شرح الحماسة ٣ : ١٥٢ " قدامة وسمير من بنى سلمة الخير من قشير بن كعب وكانا شريفين وكان قدامة يقال له الذائد وقتل يوم النسار " .

(٢) الجرباء : السماء .

(٣) الطباب : جمع طبابة وأصله الخرز التى تكون فى أسفل القربة طولا شبه بها النجوم ومعنى أرتهم هو كقول القائل " لأرينك الكواكب بالنهار " .

(٤) تهر : تكره .

(٥) العصاب : ما يعصب به كالعصابة .

(٦) الدباب والدبيب واحد وهو المشى على هينة ، والدباب مصدر لم يذكر فى المعاجم .

(٧) المفضليات ص٣٥٨ ، ٣٥٩ والقصيدة من الوافر .

(٨) هو المرار بن منقذ بن عبد بن عمرو بن صدى بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم وهو شاعر إسلامى مشهور معاصر لجرير .

غـدت أمُّ الخنـابس أىَّ عصـر تعاتبنـا فقلـتُ لهـا ذَرِينـا

رأت لى صرمة لا شَرْخَ فيهـا أُقاسِمُهـا المسائـل والديـونـا

تخرّمها(١) العطاء فكل يـومٍ يُجـاذِبُ راكـب منهـا قريناً

وكائـن قـد رأينـا مـن بخيل يُعَلِّكُ هجمة سُـوداً وجُونَـا(٢)

وكذلك عمرو بن الأهتم بن سمى السعدى المنقرى(٣) يفخر بأنه كريم عنده من يكفيهم حاجاتهم فى وقت المصائب والأزمات التى تلم بهم يقول :

وإنـى كريم ذو عيالٍ(٤) تهمنى(٥) نوائب يغشى رزؤها وحقـوقُ(٦)

ويكثر فخر الشعراء بأنفسهم فى إكـرام الضيـوف فهـذا عمـرو بـن الأهتـم السابق يتحدث عن كرمه للضيف الذى سار فى جوف ليل شديد البرد تعصف به الرياح وتفيض الأمطار النازلة التى لا تنقطـع ووسـط البروق والرعـود التـى تـأتى بالمطر وهى تكاد تخطف بالأبصار وتقـرع بقـوة قعقعتهـا وحيـث الأرض صـارت عيوناً متفجرة وأنهاراً جاريـة والرجـل الضيـف يكـاد يضـل الطريـق لكـن كـلاب الشاعر تنبح هذا الطارق حين قربه منها فاهتدى بها وأتى إلى الشـاعر الـذى قابلـه

---

(١) استأصلها العطاء وأفناها .

(٢) المفضليات ص٧٤ والقصيدة من الوافر .

(٣) هو عمرو بن سنان وهو الأهتم بن سمى بن سنان بن خالد بن منقر وينتهـى نسبه إلى تميـم كان سيداً فى قومه خطيباً بليغاً وفد على الرسول ﷺ فى وفد بنى تميم .

(٤) ذو عيال: له أولاد والمراد بذكر الأولاد أنه يطعمهم ويكسوهم ويوفر لهم ما يحتاجون إليه.

(٥) تهمنى : تثير اهتمامى وأفزع لها .

(٦) المفضليات ص١٢٦ والبيت من الطويل .

بأنواع العطف الإنسانى مقدماً له كل أنواع الرعاية والعون بعدما لاقى المشقات وسط هذا الليل والمطر الغزير ، واستقبله الشاعر استقبال التكريم وأزال عنه الوحشة وهدّأ من روعه وبسط له أياديه و لم يحزنه بشيء من الشح أو الحديث عن ضيق المكان الذى قد يكون عند غيره من الناس وقد أحسن استقباله فرحب به قائلاً له : أهلاً وسهلاً ومرحباً بعيداً عن الفحش الذى قد ينبع من بعض الناس لمن طرق بابهم فى مثل هذا الوقت فيضيقون،و لم يحرجه بسؤاله عن أهله ومقصده ، وقد قدّم الشاعر لضيفه اللبن الدافىء الخالص ليشرب ويستريح ثم ذهب الشاعر إلىمبرك الإبل واختارناقةمن أحسن النوق شحماً ولحماً بيضاء عشراءونحرها لضيفه وقدمها له طعاماً شهياً وقدم له الملابس الرقيقة واللحاف لينام بعد ذلك يقول :

ومستنبح بعد الهدوء دعوته

وقد حان من نجم الشتاء خفوق(١)

يعالج عرنينا من الليل بارداً

بكف رياح ثوبه وبروق

تألق فى عين من المزن وادق

له هيدب(٢) دانى السحاب دفوق

أضفت فلم أفحش عليه و لم أقل

لأحرمه : إن المكانَ مضيق

---

(١) ميل النجم للغروب .

(٢) الهيدب : شيء يتدلى من السحاب مثل الهدب من ريه .

فقلت لـه أهـلاً وسهـلاً ومرحباً

فهـذا صـبوح راهـن(١) وصـديق

وقمت إلى البرك(٢) الهواجد(٣) فاتقت

مقاحيـد كـوم(٤) كالمجـادل(٥) روق(٦)

بأدمـاء(٧) مرباع النتـاج(٨) كأنهـا

إذا عرضـت دون العشـار فنيـق(٩)

بضربـة سـاقٍ أو بنجـلاء(١٠) ثرةٍ

لهـا مـن أمـام المنكبيـن فتيـق(١١)

---

(١) الراهن : الدائم الثابت .

(٢) البرك : إبل الحى كلهم .

(٣) الهواجد : النيام والهاجد من الأضداد يقال للنائم ويقال للمتيقظ بالليل المتهجد بالقراءة

(٤) المقاحيد : الإبل العظام الأسنمة والكوم كذلك جمع كوماء .

(٥) المجادل : القصور واحدها مجدل بكسر الميم .

(٦) الروق : الخيار .

(٧) الأدماء : البيضاء .

(٨) مرباع النتاج : يكون نتاجها فى أول الربيع وذلك أقوى لولدها .

(٩) الفنيق : الفحل الذى يودع للفحلة شبه هذه الأدماء به لعظمها والمعنى أن الإبل اتقت بهذه الناقة أى كانت أفضلهن وأكرمهن فاختزتها لقرى الضيف فكأنها وقت الأخريات .

(١٠) النجلاء : الطعنة الواسعة . والثرة : الواسعة مخرج الدم .

(١١) الفتيق : يريد أنه طعنها فى لبتها وهى أمام منكبيها .

وقام إليها الجازران فأوفدا(١)

يطيران عنها الجلد وهي تفوق(٢)

فجر إلينا ضرعها وسنامها

وأزهر(٣) يحبو للقيام عتيق

بقير(٤) جلا بالسيف عنه غشاءه

أخ بإخاءِ الصالحين رفيق

فبات لنا منها وللضيف موهنا

شواء سمين زاهق(٥) وغبوق

وبات له دون الصبا(٦) وهي قرةٌ

لحافٌ ومصقول الكساء رقيق(٧)

---

(١) أوفدا : ارتفعا أي علوا عليها لعظمها .

(٢) تفوق : تجود بنفسها .

(٣) الأزهر : الأبيض : يعني ولدها .

(٤) بقير : مشقوق عنه غشاؤه صفة لأزهر .

(٥) الزاهق : الذي ليس بعد سمنه سمن .

(٦) دون الصبا : دون ريح الصبا . مصقول الكساء قال الأصمعي : أراد به الدواية وهي الجلدة الرقيقة تعلو اللبن إذا برد .

(٧) المفضليات ص١٢٦ ، ١٢٧ وهي من الطويل .

وهذا عوف بن الأحوص(١) يتحدث عن المستنبح من الضيوف الذى يضل الطريق فتنبح كلاب الشاعر لتنبهه ليستدل بها على الحى وقد سار ليلاً فى الصحراء المترامية الأطراف فى وحشة الليل البهيم الذى يحيط به من كل جانب مُعرَّضاً للهلاك وإذا الشاعر الذى أشعل ناره ليهتدى بها كل غريب يبحث عن الملجأ والمأوى يستقبل هذا الضيف بعدأن هدته كلابه إليه فيقدم له كل معروف ويطبخ له الطعام ويقدم له الشراب فىمظهرمن مظاهر الكرم العربى يقول :

ومستنبح يخشى القَوَاءَ(٢) ودونه من الليل بابا ظلمة وستورها

رفعت له نارى فلما اهتدى بها زجرت كلابى أن يهر عقورها(٣)

كذلك الشاعر ضمرة بن ضمرة النهشلى(٤) يتحدث عن كرمه واستقباله طارق الليل فى الزمان الجديب ويصف طارق الليل بأنه يقصده دون غيره من الناس لأنه يعلم كرمه وحسن ضيافته ولا سيما فى الشدة والضيق الذى يخيم على الحى فهو ملجأ الضيفان والقاصدين يقابلهم بالترحاب والبشاشة ، وما إن يسفر النهار حتى يكون الضيف شاكراً له حامداً لفضائله مثنياً عليه ويذكر الشاعر أنه

---

(١) هو عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وينتهى نسبه إلى مضر والأحوص لقبه وأصل الحوص ضيق فى العين وكان سيداً فى قومه .

(٢) القواء : الخالى من الأرض أى يخشى أن يهلك فيه .

(٣) المفضليات ص١٧٦ .

(٤) هو ضمرة بن ضمرة بن حابر بن قطن بن نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة وينتهى نسبه إلى تميم وكان من رحال بنى تميم فى الجاهلية لساناً وبياناً وكان من حكامهم المشهورين .

لا يفعل ذلك ليحقق مجداً لنفسه وإنما ليعلى من شأن قومه ويرفع من مكانتهم بين قبائل العرب جميعاً ويدفع عنهم كل مذلة يقول :

وطارق ليل كنت حمَّ(١) مبيته ... إذا قل فى الحى الجميع الروافد(٢)

وقلت له : أهلاً وسهلاً ومرحباً ... وأكرمته حتى غدا وهو حامد

وما أنا بالساعى ليحرز(٣) نفسه ... ولكننى عن عورة الحى ذائد

وإن يك مجد فى تميم فإنه ... نمانى(٤) اليفاع نهشل وعطارد

وما جمعا من آل سعد ومالك ... وبعض زناد القوم غَلْثٌ وكاسِدُ(٥)

ومن يتبلغ بالحديث فإنه ... على كل قول قيلَ راعٍ وشاهدُ(٦)

وهذا المرار بن منقذ يتحدث عن ضيف يسير ليلاً على غير هدى وعبر عنه بخابط ليل وقال إن كلبه لا ينبح حينما يرى هذا الضيف لأنه ألف واعتاد رؤية الضيفان ليلاً وكلابه كلها أليفة لكثرة رؤيتها للضيفان تأنس بهم وترشدهم إلى مكان الشاعر وحيه فيكرمهم يقول :

---

(١) الحم : القصد ، وحم مبيته : أى قصد مبيته .

(٢) جمع رافد والرفد : المعونة .

(٣) الحرز : المكان المنيع يلجأ إليه والحريز : الحصن ، وحرزه : صانه وحرُز : امتنع وتحصّن.

(٤) نمانى : رفعنى .

(٥) غلث : بسكون اللام صفة من قولهم غلث الزند من باب (فرح) لم يور ناراً وهذه الصفة لم تذكر فى المعاجم ، الكاسد من قولهم (كسدت السلعة) بارت والمراد أن بعض القوم ضئيل النسب .

(٦) المفضليات ص٣٢٦ والقصيدة من الطويل .

وأنا المذكور من فتيانها بفعال الخير إن فعل ذكر

أعرف الحق فلا أنكره وكلابى أنس غيرُ عقر

لا ترى كلبى إلا آنساً إن أتى خابط ليل لم يهر

كثر الناس فما ينكرهم من أسيف(١) يبتغى الخير وحر(٢)

وهذا الشاعر ربيعة بن مقروم الضبى(٣) يتحدث عن ضيوفه بالليل ، وقد هبت ريح الشمال الباردة فكان لهم كريماً ، بتقديم إبله العظيمة السنام ، ذات الشحم ، وقد قطعها قطعاً ، يقول :

وأضياف ليل فى شمال عرّية قريت من الكوم السديف المرعَّبَا(٤)

كذلك جبيهاء الأشجعى(٥) يتحدث عن معزة منحها لرجل و لم يردها إليه وأنها كانت تنفعه حين يطرق ضيف ليلاً فيجد فى ضرع عنزته الغبوق فيقدمه شراباً للضيف .

---

(١) الأسيف : المملوك .

(٢) المفضليات ص٨٨ والقصيدة من الرمل .

(٣) هو : ربيعة بن مقروم بن قيس بن جابر بن خالد بن عمرو ، وينتهى نسبه إلى مضر بن نزار ، وربيعة أحد الشعراء المعدودين فى الجاهلية والإسلام ، أسلم وحسن إسلامه ، وشهد القادسية وغيرها .

(٤) السديف : اللحم ، والمرعَّب : المقطع ، وانظر: المفضليات ص٣٧٦ ، والبيت من الطويل.

(٥) اسمه : يزيد بن حميمة بن عبيد بن عقيلة وينسب إلى أشجع بن ريث بن غطفان وينتهى نسبه إلى مضر وجبيهاء - بلفظ التصغير - لقبه ويقال : جبهاء بالتكبير . نشأ وتوفى أيام بنى أمية وهو من المقلين المشهورين ولا يعد من الفحول وهو شاعر بدوى فصيح اللسان .

ويُلُمُّهـا(١) كانت غبوقةَ طـارقٍ ترامـى(٢) به بِيدُ الإكامِ القَراوِحُ(٣)

ويقول معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب : إنه لا يعتذر لأضيافه مما ينوبه من شدة وضيق فهو لا ينتحل الأعـذار لمـن يطلـب منـه المسـاعدة فهـو كريـم فـى الشدة والرخاء ، يقول :

بل لا نقـــول إذا تبوأ جيرةٌ إن المحلةَ شِعْبُها مكـــدودُ(٤)

إذ بعضـهم يحمى مراصد بيته عن جاره وسـبيلنا مورودُ(٥)

وقد أكثر الشعراء من الحديث عن لوم اللائمات واللائمين وعـدم إطـاعتهم لهؤلاء الذين يلومونهم فكثيراً ما كانت الزوجة أو الأم أو غيرهما تلـوم زوجهـا أو ولدها أو جارها على كرمه وكثرة عطاياه وإنفاقه لماله والرجل يرد على لائمته بأن كنز المال صفة سيئة فالأولى إنفاقه فى الخير حيث تتحقق الفائدة فـالرزق مـن عنـد الله ويجب على الإنسان البذل والعطـاء مـا دام ذلـك فـى قدرتـه والحيـاة لا تـدوم والمال زائل ويؤول إلى الوارثين الذين قد لا يحمدونه يقول المرار بن منقذ .

غـــدت أم الخنابس أىَّ عَصْـر تعاتبنـا فقلـــتُ لها ذَرِينَـــا

....

---

(١) ويلمها : العرب تقول للرجل ويلمه تمدحه بذلك فهو يتعجب منها .

(٢) ترامى القوم : رمى بعضهم بعضاً والمراد أفضى إليه بانتقاله من مكان إلى آخر .

(٣) القراوح : جمع قرواح بالكسر وهـو المنبسـط مـن الأرض لا يستتر منـه شـىء . وانظـر : البيت فى المفضليات ص١٦٨ وهو من الكامل .

(٤) مكدود : فى شدة وضيق .

(٥) المفضليات ص٣٥٦ .

وكائن قـــد رأينـــا من بخيل يُعَلِّك هجمةً ســـــوداً وجوناً(١)

وهذا المخبل السعدى(٢) يتحدث عن العاذلـة التـى ليـس لهـا خـبرة بالحيـاة كخبرته ولا علم كعلمه فهى تعتقد أن سموق المرء وسموه وسعادته الأبدية فى قضاء ملذاته وشهواته دون أن ينفق المال فى حاجات الناس وعلى أضيافه فيظل غارقاً فيه ينعم بالمنزلة فى قومه طول الحياة وهى تظن لقصر تفكيرها أن الفقر يشقى أصحابه ويـؤدى إلى تعاستهم وهـى تجـادل الشـاعر حتـى لا ينفـق مالـه علـى المحتـاجين والأضياف والأصدقاء لكن الشاعر يرد عليها بأن المال لا يخلـد صاحبـه فلـو جمـع للإنسان قدر هائل كمائة ناقة مثلاً فقد يؤدى ذلـك إلى بخـل بعـض النـاس بشـىء منها لكن المال الكثير لا يؤدى به إلى البخل فمهما يكثر فلـن يفيـد إلا بإنفاقـه فـى وجوه الخير فلا بد أن يموت الإنسان ويترك هذه الأموال فالموت يذهب بكـل حـى ويقتحم الحمى على أىّ مخلوق فى أى مكان حتى لو احتمـى بـأعلى الهضـاب ولا ينفع الإنسان إلا أن يقدم ذكرى حسنة بإنفـاق المـال والذكـر للإنسـان عمـر ثـان وإطاعـة الله أولى وأجـدر لحصـول الإنسـان علـى الثـواب الجزيـل وكـأن الشـاعر استوحى قولـه تعـالى : ﴿ أينمـا تكونـوا يدرككـم المـوت ولـو كنتـم فـى بـروج مشيدة﴾(٣) .

يقول :

---

(١) المفضليات ص٧٤ وانظر : ص٢٩٤ من هذا البحث .

(٢) المخبل بفتح الباء المشددة لقب له وكنيته أبو يزيد واسمه ربيع بن مالك بن ربيعة بـن قتـال ابن أنف الناقة وينتهى نسبة إلى تميم ، عمَّر فى الجاهلية والإسلام ومات فى خلافة عمـر أو عثمان .

(٣) الآية ٧٨ من سورة النساء

وتقـــول عاذلتـى وليـس لهـا ... بغـــدٍ ولا مـــا بعْـــدَه عِلْـمُ

إن الثـــراء هـــو الخلـودُ وإ ... نَّ المـرءَ يُكْـــرِبُ يومه العُدْمُ

إنـى وجَـــدِّكِ مـــا تُخلِّدُنـى ... مائـةٌ يطيـــــرُ عِفَـــاؤها أُدْمُ(١)

ولئـــن بنيتِ لى المشقرَ فى ... هضبٍ تُقتصر دونـه العُصْـــمُ

لَتُنَقِّبَـــنْ عنـــى المنيـــةُ إ ... نَّ الله ليـــس كحُكْمِـهِ حُكْمُ

إنـى وجـدتُ الأمـرَ أرشدُهُ ... تقـــــوى الإلـهِ وشره الإثمُ(٢)

وهذا عمرو بن الأهتم السعدى يذم البخل لعاذلته التى كانت تلومه على كرمه وإتلافه لماله ويطلب منها أن تتركه وشأنه ولا تواصل لومه وتقريعه ويدافع الشاعر عن نفسه بقوله لها إن البخل يسىء إلى الرجل ويسلب أخلاقه الصالحة الحسنة ويحط من قدره وشأنه بين الناس حينما يقضى على محاسن الصفات التى يجب أن يتحلى بها المرء وهى الكرم ويطلب من عاذلته أن توافقه ولا تعصى أمره فيما هو مقدم عليه لأنه يخاف على منزلته الرفيعة العالية بين قومه أن تضيع وتتلاشى إذا هو تخلى عن كرمه وإن كثيراً من الناس يحتاجون إلى عونه ومساعدته لهم إذا أصابهم ضيق وعسر ويجب عليه مساعدتهم ومد يد العون لهم ، يقول :

ذرينـى فـإن البخـل يـا أمَّ هيـثم ... لصالح أخـلاقِ الرجـالِ سـروقُ

ذرينـى وحُطى فى هـواى فإننـى ... على الحسب الزاكى الرفيع شفيقُ(٣)

---

(١) يطير عفاؤها : يذهب وبرها من السّمن . الأدم : الإبل الخالصة البياض .

(٢) المفضليات ص١١٨ والقصيدة من الكامل .

(٣) يقال حط فى هواه : إذا تابعه ولم يعصه فى كل ما أمره به ، والحسب : يقال حسُب الإنسان حسباً : كان له ولآبائه شرف ثابت متعدد النواحى .

وإنـى كريـم ذو عيـال تهمنـى نوائب يغشى رزؤهـا وحقـوقُ(١)

والعاذلة لا تكتفى باللوم والتعنيف لزوجها على كرمه وإنفاقه لماله بـل إنهـا تجاهر بالمفارقة والغضب بسبب كرمه وإصراره على الاتصاف بهـذه الصفـة حتى يعلو ذكره بين الناس وهو لا يريد أن يذمه الضيف بالبخل فهذا شيء ممقوت عنـد العرب ويطلب من لائمته تحقيق مجد آبائـه وأجـداده الـذى ورثـه عنهـم ولا يمكنـه التفريط فيه ، ويجب عليها أن تسعد لذلك ولا تحزن إذا تمسك بما يعلى ذكـره بـين الناس ويتعجب الشاعر من تكالب المتكالبين على جمع المال مع أنه سـيزول ويفنـى مما يدعو الإنسان ألا يحرص عليه ويطمئـن إلى أن رزقـه سـوف يأتيـه . يقـول المرقش الأصغر(٢) .

آذنـت جـارتى بـوشك رحيل باكراً جاهـرت بخطب جليـل

أزْمَعَـتْ(٣) بالفـراق لما رأتنى أتْلِفُ المـالَ لا يَـذُمُّ دخيـلـى

ارْبعـى إنمـا يريـكِ منـى إرثُ مجد وَجِدُّ لُـبٌّ أصيـلِ

عجبـاً مـا عجبت للعـاقِدِ الما ل وريبُ الزمانِ جمُّ الخبـولِ(٤)

ويضيـعُ الـذى يصـيرُ إليـه من شقاءٍ أو ملكِ خلـدِ بجيـلِ(٥)

---

(١) المفضليات ص ١٢٥ ، ١٢٦ وهى من بحر الطويل .

(٢) اسمه ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك بن بكر بن وائل وهو ابن أخى المرقش الأكبر وعم طرفة بن العبد وهو أحد عشاق العرب وفرسانهم المشهورين .

(٣) أزمعت : عزمت .

(٤) العاقد المال : الذى يجمع المال ويعتقده ، الخبول جمع خبل وهو الفساد .

(٥) بجيل : عَظيم .

أجمـل العيـش إن رزقـك آت لا يَرُدُّ الترقيحُ شروى فتيـلِ(١)

وقد وصل الأمر ببعض اللائمات أن وصفت زوجها الكريم بأنـه قـد غـوى وضل فهذا معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب يذكر أن زوجته سمية تلومـه لأنـه يقدم المال لضيوفه وطالبيه وهى لا ترتضى أن يبدد المال على هـذه الصورة وترى أنه قد غوى وبعد عن الرشد فى أمر التصرف فى ماله ويرد عليها بأنه يرحب بهذا الإنفاق ويقبل عليه فالإنفاق أمر لابد منه وإن سمته غيا فهو الرشد الحقيقىوسيظل يبذل المال ما دام فى مقدوره ذلك، يقول:

قالت سميـةُ : قد غويتَ بأن رأت حقاً تنـاوب مالنـا ووفـودُ

غَـيٌّ لَعَمْـرُكِ لا أزالُ أعُـودُهُ مـادامَ مالٌ عنـدنا موجـودُ(٢)

كذلك الشاعر عوف بن عطية بن الخرع الربابى من تيم الرباب(٣) يخاطب امرأته كبشة التى تلومه على كرمه وتتهمه لكبر سنه بعدم العقل فهو يبدد المال ذات اليمين وذات الشمال ولا يحسن التصرف فيه فما كان منه إلا أن تمسك بالتحلى بشيمة الكرم وبين لها أن كبر السن لم يزده إلا كرماً ولا سيما فى وقت الشدة والقحط وبخل الناس فهو يقدم لأصدقائه وللمحتاجين ما يسد حاجتهم وذلك واجب عليه ولا يستطيع التخلى عن هذا الواجب الذى جبل عليه فالكرم شيمة عظيمة يتحلى العربى بها يقول :

---

(١) الترقيح:إصلاح المال والقيام عليه والشروى : المثل ، والفتيل : الخيط الذى فى شق النواة. وانظر القصيدة فى المفضليات ص٢٥٠ ، ٢٥١ وهى من الخفيف .

(٢) المفضليات ص٣٥٦ والقصيدة من الكامل .

(٣) هو عوف بن عطية بن عمرو بن عبس بن وديعة وينتهى نسبه إلى مضر وعوف من فرسان العرب شاعر جاهلى .

وقالت كبيشةُ من جهلها أشيباً قديماً وحِلماً معاراً

فما زادني الشيبُ إلا ندى إذا استروحَ المرضعات القُتَارا(١)

أحيي الخليلَ وأعْطي الجزيلَ حياء وأفعلُ فيه اليسارَا

وأمنعُ جاري من المحفاتِ والجارُ ممتنعٌ حيثُ صارا(٢)

وكما تعرض الرجل للوم المرأة تعرض أيضاً للوم الأصحاب والرفاق على الكرم وبذل المال فذو الإصبع العدوانى(٣) يذكر أن اثنين من أصحابه كانا يلومانه على الكرم ويصفانه بتضييع المال فبين لهما خطل رأيهما وأنهما بعيدان عن الصواب ، وإذا كانا ينظران إليه على أنه قد كبر وأنه يتلف المال فإن ذلك غير صحيح لأنه لم يكن بخيلاً يوماً ما و لم يكن ضعيفاً أو جبانا يمنع نفسه من الخير وهو يرى أن بذله للمال يعد شرفاً يمنع عنه الذم ويحفظ عرضه ويحقق به المجد لنفسه يقول :

إنّكما صاحبيَّ لن تدعا لومى ومهما أُضعْ فلن تسعا(٤)

إنكما من سَفَاهِ رأيكما لا تجنباني السَّفَاهَ والقَذَعَا

---

(١) القُتَار : ريح الشواء .

(٢) المفضليات ص٤١٣ وهى من المتقارب .

(٣) اسمه حرثان بضم فسكون وسمى ذا الإصبع لأن حية نهشت إبهام قدمه فقطعها وقيل لأنه كان له فى رجله إصبع زائدة وهو ابن الحرث بن محرث بن شباث بن ربيعة وينتهى نسبه إلى مضر بن نزار شاعر فارس قديم جاهلى وهو أحد الحكماء عمر طويلاً يقال إنه عاش ١٧٠ سنة وعندما حضره الموت أوصى ابنه أسيدا وقال له (يا بنى إن أباك قد فنى إلخ) .

(٤) أضع : أضيع ، لن تسعا : لن تقوما مقامى .

إلا بـــأن تكـــذبا علـــى ً ولـــم أملك بـــأن تكذبـــا وأن تلعـــا

لـن تعقـــلا جفـــرةً(١) علىَّ ولم أو ذِ نديمـــا ولـــم أَنَـــلْ طَبَعَـــا(٢)

إن تزعمـــا أننـــى كبـــرتُ فلم أُلفَ بخيـــلاً نِكْساً(٣) ولا ورعاً(٤)

أجعـــلُ ما لـــى دون الدنا غرضاً وما وهى ملأمـــور فانصـدعا(٥)

كذلك نجد تأبط شراً(٦) يتحدث عن أحد رفاقه الذى يلومه على إنفاق المال والمعروف أن تأبط شراً من الشعراء الصعاليك الذين كانت أكفهم لا تبقى على شيء من المال فجاءه عاذل ملحف فى اللوم وكثير الاعتراض يلقى عليه من الأسباب والعلل التى تؤدى إلى تثبيط الهمم والعزائم وإلى الإحجام عن فعل الخير وقد بلغت أساليب هذا اللائم مبلغاً كبيراً فى الإيذاء والإيلام الذى يؤثر فى النفس ويجعل المقبل على الخير يحجم عنه متردداً فارًّا هارباً بنفسه فهو كمن يكوى الجلد بالنار فيحرقه أيما إحراق وحجة هذا اللائم الموجهة إلى الشاعر أنه ينفق ماله فى

---

(١) الجفرة : من أولاد الغنم العظيمة الجوف وأراد بالجفرة هنا التحقير لأن الدية إنما تكون بالإبل .

(٢) الطبع بالتحريك : الدنس أو اتساخ العرض .

(٣) النكس : الردىء .

(٤) الورع : بفتح الراء الجبان أو الضعيف لاغناء عنده .

(٥) المفضليات ص١٥٣ ، ١٥٤ والقصيدة من المنسرح .

(٦) هو ثابت بن جابر بن سفيان بن عدى بن كعب بن حرب بن تيم بن سعد وينتهى نسبه إلى مضر بن نزار وسمى (تأبط شراً) لأنه تأبط سيفاً وخرج فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت: تأبط شراً وخرج وهو لقب اشتهر به . وكان أحد لصوص العرب المغيرين وكان من العدائين وهو شاعر إسلامى .

أوجه الخير وعلى نفسه وفى حاجاته المتعددة وحاجات الناس من المحتاجين والعفاة.

وقد وقف الشاعر يرد هذه الحجج موضحاً أهمية الإنفاق وطلب من العاذل أن يخفف من عنفه وأن يقلل من غلوائه وبين له أن متع الحياة لا تبقى وأن المال كذلك لا يدوم وأن الإنسان يقدر فى جماعته بقدر ما يقدم لهم من البذل والعطاء ومن عادة القبائل العربية أن تمدح أصحاب الإنفاق وأن تلتف من حولهم وتقدمهم للزعامة والرئاسة وأن يأتى المحتاجون من كل صوب سائلين عن مصدر الخير من أصحاب البر والإنفاق وتلك منزلة كبرى سيفقدها الشاعر إذا تخلى عن مبدئه فى الإنفاق فهو لا يتصور نفسه معزولاً عن الناس مقتراً بخيلاً ممسكاً يسأل عنه أهل الحى فلا يجدونه فتسقط مكانته بين العرب ويذمه من حوله من الناس وهذا يدل على ما كان للكرم من قدر عند العرب ومن سمو فى المنزلة لمن يتصف به وأولى بالرجل ذى المال الوفير أن ينفقه فى حاجته وفيما يحقق له الخصال الكريمة ليكون المال سبباً للسعادة فى الدنيا والآخرة إذ لابد من الموت وكل ما يجمعه الإنسان إن لم يُفد منه فسيتركه برحيله عن هذه الحياة ثم يخاطب عاذلته بأنها ستعرف تلك العواقب الوخيمة وستندم على توجيهها اللوم حينما تحس بفقدان تلك المنزلة الخلقية الكبرى التى كان عليها الشاعر من كرم وسخاء . يقول :

بل من لعذالة خذالة أشبٍ(١) حرَّق باللوم جِلدى أىَّ تحْراقِ

يقول أهلكتَ مالاً لو قنعت به من ثوبِ صدق ومن بزٍّ وأعلاق(٢)

---

(١) الأشب : المعترض يريد من يعيننى على هذا العذالة .

(٢) الأعلاق : كرائم الأموال .

عـــاذلتى إن بعـــض اللـوم معنفـــةٌ ... وهل متاعٌ وإن أبقيتُـــهُ بـــــاقِ

إنـى زعيـــم لئـــن لـــم تتركوا عذلى ... أن يسأل الحـىّ عنـى أهل آفـاقِ

أن يســـــألَ القـــومُ عنى أهلَ معرفةٍ ... فلاُ يخبِّـرهُـمْ عـن ثـابت(١) لاقِ

سـدِّدْ خـــلالك مـــن مـــال تُجمِّعُهُ ... حتى تلاقى الذى كل امرىءٍ لاقِ

لتَقْـرَعَـنَّ علـىَّ الســـــنَّ من ندمٍ ... إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقـــى(٢)

فخر الشاعر بكرم قومه :

وإننا نرى فى شعر المفضليات أشعاراً يتبين منها استخدام الفخر بكرم القـوم وتصويره على أنه شرف للقبيلة أن تنفق المال وتبذله فى مساعدة المحتاجين والأهـل والجيران والضيفان وتلك السمة ترفع من شأن القبيلة فـى مجتمـع العـرب وتجعلهـم فى الذروة والسنام وهو نوع يسير على النمط السابق فى بذل أنواع المال ومنها ما هو معروف فى الجزيرة آنذاك من الإبل والخيل والماعز وغيرهـا فهـى تقـدم طعاماً لطالبيه أو تدفع منها الديات والحقوق التى تتحملها القبيلة عمن لا يطيقـون دفعهـا فى الملمات والأرزاء .

فهـذا بشـر بـن عمـرو بـن مرثـــد(٣) يتحـدث عـن كـرم قومـه وأنهـم جبلـوا علـى بـذل المـال فهـم ينفقونـه عنـد المشـكلات والمصـاعب والفقـر فـى

---

(١) ثابت : هو تأبط شراً .

(٢) المفضليات ص٣٠ ، ٣١ والقصيدة من البسيط .

(٣) هو بشر بن عمرو بن مرثد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بـن ثعلبـة وينتهـى نسبه إلى نـزار وهو شاعر جاهلى .

مواقف تقتضى بذل المال فيفيضونه على طالبيه ويسدون حاجتهم ويرفعون عنهم الضيم والمغارم وبذلك يذهبون عن الناس ما يؤلمهم من شقاء الحياة وتعاستها وهم لا يردون طالباً لعطائهم وإذا قدم إليهم السائل منحوه ما يشاء وحققوا له أمله ولو كان ذلك بإهدائه بعيراً أو فرساً دون من أو أذى يقول :

فى إخوةٍ جمعوا ندى وسماحةً ... هُضْمٍ(١)إذا أَزْمُ الشتاء(٢) تزعباً(٣)

....

عمرو بن مرثدٍ الكريمُ فعالُه ... وبنوه كان هو النجيبُ فأنجبا

....

غلبت سماحتهم وكثرة مالهم ... لزباتِ دهر السوءِ حتى تذهبا

وترى الذى يعفوهم(٤) لحبائهم(٥) ... يُحبى ويرجو منهم أن يركبا

أدماءَ مُفكِهةً وفحلا بازلاً(٦) ... أو قارحاً(٧)مثل الهراوةِ سَرحبا(٨)

---

(١) الهضم : جمع أهضم وأصل الهضم الكسر والمراد أن القوم يكسرون أموالهم فى الحقوق أى ينفقونها .

(٢) وأزم : جمع أزمة .

(٣) وتزعبا : اتسع وكثر .

(٤) يطلب فضلهم .

(٥) لعطائهم .

(٦) ما بلغ التاسعة .

(٧) الفرس تمت أسنانه وذلك فى الخامسة من عمره .

(٨) السرحب أو الشرحب : الطويل .

أو قـــارحاً مثـلَ القنـاةِ طمـــــرةً(١) شوهاءَ تعتبـطُ المـدلَّ الأحقبـــا(٢)

ويفتخر المرقش الأكبر(٣) أيضاً فيقول : إننا نعد المراجل لطهـى الطعـام لمـن يحتاج إليه ويقدم إليها الناس من كل صوب فيغترفون منها ولا يُردون عنهـا ونحـن نقدم أموالنا فى الديات وغيرها ونطعم الطعام إذا هبت ريح الشمال الباردة فنحـن أصحاب قرى غير مجهول عن الناس يقول :

شُـعثٌ مقادمنـا نُهْبى مراجلنا نأسو بأمـوالنـا آثـــارَ أيديـنـــا

المطعمـون إذا هبـت شـآميـة وخيـرُ نـاد رآه الناس نادينـــــا(٤)

والمرقش الأكبر أيضاً يفخر بكـرم قومـه فيستحلف مخاطبتـه بـأن قومـه فـى الشتاء وقت هبوب رياح الشمال وقلـة الطعـام الـذى يجعلهـم يتياسـرون بـالقداح ليحصلوا عليه وقلة المجتمعين من الناس فى هذا الوقت الشديد لا يردون السائل إذا آتاهم ولو كان ذلك بعد قسمة اللحم فيجعلون له منه نصيباً .

وهم لكرمهم يضعون طعامهم فى جفان واسعة ويقدمون اللحم المطهو فيها صبـاح مساء وهى تكفـى عـدداً غفـيراً مـن طـالبى الطعـام والمحتـاجين وهـم فـى تياسرهم بالقداح شتاء ينفعون الناس بالطعام الـذى يـأتى نتيجـة لهـذا التياسـر فـلا يتعرضون للذم صيفاً حين يتحدث الناس بمثالب البخلاء .

---

(١) الطمرة : الفرس المشرفة المستفزة للوثب وتعتبط أى تصيد والمدل البعير الذى يـدل بعـدوه والأحقب ما فى موضع الحقيبة منه بياض .

(٢) المفضليات ص٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٣) هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة وينتهى نسبه إلى نزار بن معد بـن عدنان والمرقش لقب له .

(٤) المفضليات ص٤٣١ .

يقول :

بِـوُدِّكِ(١) ماقومى على أن هَجَرْتُهُـم ... إذا أشْجَذَ(٢) الأقـوامَ ريح أُظائفِ(٣)

وكان الرِّفادُ(٤) كل قـدْحٍ(٥) مُقرمٍ(٦) ... وعادَ الجميعُ نُجْعـةً للزعـانف(٧)

جـديـرون أن لا يَحْبسوا مُجْتـديهمُ ... للحْمِ وأن لا يَدْرؤوا قِـدحَ رادفِ(٨)

عظـام الجفـانِ بالعشياتِ والضحى ... مشاييطُ(٩) للأبدانِ غيرُ التَّـوارِفِ

إذا يسـروا(١٠) لم يُورِثِ اليَسْرُ بينهم ... فواحِشَ يُنْعى ذكْرُها بالمصـايف(١١)

ويقول سلامة بن جندل(١٢) : إن قومه كرام فـى كـل الأوقـات فـى الليـل والإصباح يقدمون يد العون للجار والضيـف الغريـب والسـائلين ويشـترون النـوق

---

(١) روى بفتح الواو وضمها بمعنى الحب أو الصنم المعروف (وَ د) .

(٢) أشجذه الشيء : آذاه .

(٣) جبل فى مهب الشمال من جهة الشام .

(٤) من المرافدة وهى أن يأتى كل رجل بطعام .

(٥) واحد أقداح الميسر .

(٦) المعضض : الموتر فيه .

(٧) القليل من الناس .

(٨) الذى يجيء بعدما قسم الجزور .

(٩) النحارون .

(١٠) ضربوا بالقداح .

(١١) المجالس فى الصيف ، وانظر المفضليات ص٢٣٢ ، ٢٣٣ وهى من الطويل .

(١٢) سلامة بن جندل بن عمرو بن عبيد بن الحرث وينتهى نسبه إلى تميم وهو شـاعر جاهلى وكان من فرسان العرب المعروفين .

التى تمتلىء شحماً ولحماً بأغلى الأثمان ويقدمونها طعاماً سائغاً وهم بذلك يدخلون السرور على هؤلاء لتحقيق آمال السائلين ومن عضهم الجوع وأصابهم الفقر يقول :

إنا إذا غربت شمسٌ أو ارتفعت ... وفى مباركِها بُزْلُ المصاعيبِ

قديَسْعَدُالجارُ والضيفُ الغريبُ بنا ... والسائلون ونُغْلِى مَيسَرَ النيبِ(١)

وهذا ربيعة بن مقروم يمدح قومه بالكرم وأنهم ينفقون أموالهم فى الحقوق التى تعتريهم ينوبون فى الديات ويقدمون العطايا ويكرمون الأضياف وكل همهم أن يحققوا للناس الرخاء فيجعلون أموالهم وإبلهم عطايا للناس لايبخلون بها ولا يخشون عليها بل يجعلونها أداة للمنافع طيعة فى أيديهم مستجيبة لتحقيق مطالبهم يقول :

أليسوا الذينَ إذا أزمةٌ ... ألحت على الناس تنسى الحلوما

يُهينونَ فى الحقِّ أموالَهُمْ ... إذا اللَّزَباتُ التحينَ(٢) المُسِيمَا(٣)

ويقول الحارث بن حلزة اليشكرى(٤) نحن للضيف خير قبيلة إن لم يكن فى إبلنا لبن عطفنا على القداح فضربنا بها للأضياف فنحرنا لهم ، يقول:

---

(١) المفضليات ص١٢٠ وهى من البسيط .

(٢) التحين : قشرن يقال لحوت العود ولحيته إذا قشر ما عليه من لحائه .

(٣) المسيم : صاحب الإبل والغنم اشتق اسمه من السائمة انظر : المفضليات ص١٨٣ .

(٤) الحارث بن حلزة بن مكروه بن بديد بن عبد الله بن مالك وينتهى نسبه إلى ربيعة بن نزار ابن معد بن عدنان شاعر قديم من المقلين وهوصاحب المعلقة المشهورة(آذنتنا ببينها أسماء).

وإذا اللقاحُ تَرَوَّحتْ بعِشيةٍ رَتْكَ(١) النِّعامِ إلى كنيف(٢) العرْفج

ألفيتنا للضيف خيرَ عمارةٍ إن لم يكنْ لَبَنٌ فعطْفُ المُدْمج(٣)

وهذا متمم بن نويرة اليربوعى(٤) يتحدث عن كرم أخيه مالك بن نويرة الذى قتل فى حرب الردة ورثاه بقصائد كثيرة وفى إحداها يتحدث عن كرمه وأنه كان يفك العانى وكان يجود وقت الريح الشديدة وقسوة البرد فى الشتاء فيطعم الناس ويكرمهم وكان الضيف يطلق إرغاء بعيره لتجيبه الإبل برغائها أو تنبح لرغائه الكلاب فيستدل على الحى فينال كرم الضيافة عند مالك وكان يعنى بالأرامل ويطعم ما يأتيه من لحم وغيره وقت الجدب يقول :

فعينىّ هلا تبكيان لمالك إذا أذرت الريحُ الكنيفَ(٥) المرفعا

وللشرب فابكى مالكاً ولُبُهْمةٍ(٦) شديد نواحيه على من تشجعا

وضيفٍ إذا أرْغَى طروقاً بعيرهُ وعانٍ ثوى فى القِدِّ حتى تكنعا(٧)

---

(١) الرتك : مشى مسرع مع مقاربة الخطو .

(٢) الكنيف : حظيرة تعمل من شجر تأوى إليها الإبل تكتنفها من البرد .

(٣) المدمج : قدح الميسر يقول إن لم يكن فى إبلنا لبن عطفنا على القداح فضربنا بها للأضياف فنحرنا لهم ، المفضليات ص٢٥٦ .

(٤) هو متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع وينتهى نسبه إلى مضر وهو صحابى وله فى أخيه مالك قصائد يرثيه بها من غرر الشعر .

(٥) الكنيف : حظيرة من شجر تجعل للإبل تقيها البرد .

(٦) البهمة : الشجاع .

(٧) القد : السير من الجلد - تكنع : تقبض يعنى حتى يبس القيد على جلده .

وأرملةٍ تمشى بأشعثَ مُحْثَلٍ(١) كفرخ الحُبارَى رأسُهُ قد تضوعا

إذا جَرَّدَ القومُ القِداحَ وأوقِدَتْ لهم نارُ أيْسَارٍ(٢) كفى من تضجعا(٣)

وإن شهِدَ الأيسارَ لم يُلْفَ مالكٌ على الفرثِ يحمى اللحمَ أن يُتمزَّعا(٤)

أبى الصَّبرَ آياتٌ أراها وأننى أرى كل حبلٍ بعد حبلك أقطعا(٥)

ويؤبن مالكاً بأنه لا يعجل بالعشاء ينتظر الضيفان يقول :

لقد كفن المنهالُ(٦) تحت ردائهِ فتىً غيرَ مبطانِ العشياتِ(٧) أروعا(٨)

وفى صورة من صور الموازنة بين أخلاق قبيلتين يهجو المرقش الأكبر أقواماً بالبخل ويمدح قومه بالكرم فذكر أن الفرق كبير بين هؤلاء الأقوام الذين يهجوهم بجمع المال من السلب والنهب والاعتداء على الأعراض وبين قومه الذين ليسوا كذلك فى جمعهم لأموالهم فهى شريفة الأصل لا مطعن فيها ولا اعتداء وإذا كان كثير من الناس وقت الخصب يَطْغَوْنَ ووقت الجدب يبخلون بما عندهم ولا يعطونه للسائلين وطالبى العون فإن قوم الشاعر ليسوا كذلك فهم ينفقون أموالهم ويجودون بما عندهم ولا سيما فى الجدب حين ترى الطيور تدخل البيوت لتحصل على ما تأكله حين لا تجد شيئاً فى الخلاء طعاماً لها وإن هؤلاء الأقوام المهجوين

---

(١) المحثل : الذى أسيىء غذاؤه .

(٢) الأيسار : جمع يسر وهم أشراف الحىّ .

(٣) تضجع فى الأمر : تقعد ولم يقم به .

(٤) يتمزَّغ بالبناء للفاعل: يتقطع وبالبناء للمفعول: يفرق، يقول: لايحمى نصيبه أن يتقسمه الفقراء.

(٥) المفضليات ص٢٦٦ ، ٢٦٧ وهى من الطويل .

(٦) المنهال : هو ابن عصمة الرياحى كفن مالكا فى ثوبيه .

(٧) لا يعجل بالعشاء ينتظر الضيفان .

(٨) المفضليات ص٢٦٥ وهو من الطويل .

يسترون نارهم حتى لا يراها طارق الليل والضيف فيهتدى بضوئها ، وقوم الشاعر يبرزون نارهم ويعلونها ليراها السائرون والقادمون وإذا كانت قلوب هؤلاء الناس الذين يهجوهم الشاعر مملوءة بالحقد والكراهية حتى لو أكلوا العلقم لا يجدون له مرارة لأن ما فى نفوسهم أشد مرارة من الحنظل فإن قوم الشاعر على خلاف ذلك فهم بأموالهم يقون أنفسهم من الذم الذى يصاحب البخيل وعند مجيء الأضياف يحتفون بهم وينزلونهم فى أحسن مكان ويقوم الشباب منهم بخدمتهم ويسهرون على راحتهم وتقديم الطعام لهم يقول :

لسنا كأقوامٍ مطاعِمُهُمْ ... كسبُ الخنا ونهكةُ المَحْرَمْ

إن يخصبوا يعيوا بخصبهم ... أو يُجْدِبُوا فهم به ألأمْ

عام ترى الطير دواخِلَ فى ... بيوت قومٍ معهم ترتم(١)

ويخرُجُ الدُّخَانُ من خلـ ... ـل الـ ... ستركلون الكودَنِ(٢) الأصْحَمْ(٣)

حتى إذا ما الأرضُ زَيَّنَها الـ ... نبتُ وجُنَّ(٤) روضها وأكمّ(٥)

ذاقوا ندامةً فلو أكلُوا الـ ... خُطْبانَ لم يُوجَدْ له عَلْقَمْ(٦)

لكننا قومٌ أهابَ بنا ... فى قَوْمَنِا عَفَافَةٌ وكَرَم

---

(١) ترتم من الارتمام وهو الأكل .

(٢) الكودن : البرذون البطىء السير .

(٣) الأصحم : الأسود ليس بشديد السواد فيه صفرة .

(٤) جن : علا وطال والتف .

(٥) أكمّ : صار فى أكمامه .

(٦) الخطبان : بضم فسكون : الحنظل ، والعلقم : المر يريد أنهم لا يشعرون بالمرارة لما فى صدورهم من العداوة .

أَمْوَالُنـــا نقـــى النفـــوس بها ... من كُلِّ مـــا يُدْنَـــى إليـــه الذَّمْ

لا يُبْعِـــــدِ اللهُ التلـــبُّب والـــ ... غاراتِ إذ قال الخمـــيسُ نَعَـــمْ(١)

والعَـــدْوَ بيـــن المَجْلَسَيْن إذا ... ولى العَشِـــيُّ وقـــد تنـــادى العَمّ(٢)

يأتـــى الشبـــاب الأقورينَ(٣)ولا ... تَغْبِطْ أخـــاكَ أن يُقـــالَ حَكَـــمْ(٤)

المدح بالكرم :

كمـــا وجدنـــا بعـــض الشـــعراء يفخـــرون بـــالكرم وجدنـــا مـــن شـــعراءَ المفضليـات مـن يمـدح فيصـف ممدوحـه بصفـات محمـودة مـن بينهـا الكـرم فهـذا المسيب بـن علـس(٥) يمـدح القعقـاع بـن معبـد بـن زرارة وكـان عظيـم القـدر فـى بنـى تميـم يمدحـه بأنـه جـواد إذا اشتد الزمـان بالنـاس وقـت الجـدب والـبرد الشـديد نـزل الممـدوح إلى مجـالس القـوم حتـى يلتقـى بالسـائلين والضيفـان ويعود بهـم إلى منزلـه يقـدم لهـم المساعدة وصـوّر جـوده الكثـير بـالخليج المملـوء بالماء يدفع بعضـه بعضـاً لكثرتـه ، يقـول :

وإذا تهيج الرِّيحُ من صـــرَّادها ... ثلجاً ينيـخ النيبَ بالجعجـــاع

أحْلَلْتَ بيتك بالجميع وبعضهم ... متـــفـــرقٌ ليحـــلَّ بالأوزاع

---

(١) التلبب : لبس السلاح كله - النعم هى الإبل أى إذا قال الجيش هذا نعم فأغيروا عليه .

(٢) العم : الجماعة الكثيرة من الناس .

(٣) الأقورين : الدواهى وهم كبار القبيلة .

(٤) المفضليات ص ٢٤٠ ، ٢٤١ وهى من السريع .

(٥) المسيب بفتح الياء المشددة (وعلس) - بفتحتين - واسمه زهـير بـن علَس بـن مـالك بـن عمرو بن قمامة بن عمرو بن زيد بن ثعلبة وينتهى نسبه إلى نزار وهو شاعر جاهلى .

ولأنتَ أجـودُ من خليج مُفْعَم متراكـم الآذى(١) ذى دُفَّـاع(٢)

وكأن بُلْق(٣) الخيلِ فى حافـاتهِ يرمـى بهـن(٤) دوالى الزُّرَّاع(٥)

ويمدح المثقب العبدى خالد بن عمار فيطرى كـرمه وطيب مجلسه وكثرة عطاياه وجعْله ماله وقاية لعرضه فيقول إنه يطعم الناس ويوسع عليهم وهو ينفق ماله فى المكارم التى تعلى من شأنه وتقى عرضه وتبعد عنه الذم فهو متلاف لماله فى سبيل سلامة عرضه وهو يفعل ذلك عن طيب نفس ورضا ، يقول :

إنمـا جاد بشـأس(٦) خالـدٌ(٧) بعدَمـا حاقت به إحدى الظُّلَمْ

مـن منايـا يتخـاسينَ(٨) بـه يبتدرْنَ الشخص من لحـم ودم

متـرعُ الجفنـةِ ربعىٌّ(٩) النـدى حسنٌ مجلسُـهُ غيـرُ لُطُـمْ

---

(١) الآذى : الموج أو السيل .

(٢) ذى دفاع : يدفع الماء بعضه بعضًا لكثرته .

(٣) البلق : ما فيه بياض وسواد .

(٤) الدوالى جمع دالية وهى آلة للسقى ، شبه أمواج الخليج بخيل بلق فالموجة إذا ارتفعت ظهر بياضها وإذا انقلبت اسود بطنها أى يرمى الخليج بالموج دوالى الزراع .

(٥) المفضليات ص٦٢ ، ٦٣ وهى من الكامل .

(٦) بِشَأْسٍ : ابن أخت المثقب وهو الممزق العبدى .

(٧) خالد : هو ابن أثمار بن الحرث .

(٨) يتخاسين به : يأتينه واحدة بعد واحدة مأخوذ من قولهم فى العدد خسا وزكا فالخسا : الفرد . والزكا : الزوج .

(٩) الربعى : المتقدم : أى نداه قديم وأصل الربعى ما ولد فى الربيع على غير قياس ثم قيل للرجل إذا ولد له فى شبابه ولده ربعيون .

يجعلُ الهَنْءَ(١) عطايا جسمةً إن بعض المالِ فى العِرضِ أمم(٢)

لا يبالى طيب النفس به تلفَ المال إذا العرضُ سلم

أجْعَلُ المالَ لعرضى جنة إن خيرَ المالِ ما أدى الذِّمَم(٣)

وهذا حاجب بن حبيب الأسدى(٤) يمدح رجلين بأنهما ينفقان المال ابتغاء المحامد والذكر الحسن فى الناس ويقول إن للحمد ثمنه الذى يتمثل فى بذل المال وعطائه وفى ذلك يقول :

والحارثان إلى غاياتهم سبقا عفواً كما أحرز السبقَ الجوادان

والمعطيانِ ابتغاء الحمد مالهما والحمدُ لا يُشْتَرى إلا بأثمان(٥)

ولأن الرثاء نوع من مدح الموتى وجدنا بعض الشعراء يذكرون كرم الموتى ويتذكرون عطفهم على البؤساء فهذا الجميح(٦) يتفجع علىنضلة بن الأشتر ويرثيه حين قتل لأنه ترك فراغاً لا يسد مسده أحد فيه فبموته فقد الضيف نصيره حيث كان ينزل عليه الأضياف والغرباء الذين لا يجدون عوناً ولا معيناً وكان للغارمين يدفع عنهم غرمهم وللجيران يدفع عنهم الظلم ويساعدهم بماله وعطفه وللأرامل

---

(١) الهنء : العطاء والهبة .

(٢) الأمم : القصد .

(٣) الذمم : الحقوق ، وانظر : المفضليات ص٢٩٤ ، ٢٩٥ وهى من الرمل .

(٤) هو حاجب بن حبيب بن خالد بن قيس بن المضلل بن منقذ بن طريف بن عمرو بن قعين، وينتهى نسبه إلى مضر ويلتقى مع الجميح الأسدى فىجده طريف بن عمرو. شاعر جاهلى.

(٥) المفضليات ص٣٧١ .

(٦) الجميح لقب واسمه منقذ بن الطماح بن قيس بن طريف بن عمرو بن قعين بن طريف بن الحرث وينتهى نسبه إلى معد بن عدنان شاعر جاهلى وفارس يوم جبلة .

والأسر الفقيرة التى أصابها البؤس فأنقذها من بؤس الحياة وهى فى ذلك كالبعير الذىمات صاحبه فربط على قبره ليموت جوعاً فالمرثىمنقذ ومعين للبؤساء يقول:

يا نضلَ للضيفِ الغريب وللـ ... جـار المضيـم وحامل الغُرْمِ

أو مـن لأشعـثَ بعـل أرملةٍ ... مثـلِ البليـةِ سَمْلَـةِ الهـدْمِ(١)

الوصية بالكرم :

ونجد بين شعراء المفضليات من يوصى بالكرم فهذا عبد قيس بن خُفاف(٢) يوصى ابنه جبيلا بوصايا ينتفع بها فى حياته ومجتمعه وفى مقدمة تلك الوصايا حثه على إكرام الضيف واستضافته على أحسن وجه وأن يفسح له فى منزله ليبيت عنده فذلك واجب الضيافة وأن يقدم له الموائد والحفاوة وحسن الاستقبال وحذره من الإساءة إليه فالضيف يكشف طبائع الناس من جود وكرم أو بخل وشح وينقل ذلك للآخرين فإما أن يعلى من شأن مضيفه أو يحط من قدره ويوصى ابنه أيضاً بأنه إذا قدم إليه طالبو العطاء يؤملون فيه الخير فعليه أن يحقق سؤلهم ويغنيهم إذا كانوا فى ضيق وفى حاجة للعون والمساعدة فهذه صفة الكرام الذين يحافظون على طيب السمعة وجيد الخصال يقول:

والضـيفَ أكـرمه فـإن مبيتَهُ ... حـقٌّ ولاتـكُ لُعْنَـةً للنُّزَّل

واعلـم بأن الضـيف مخبرُ أهلِهِ ... بمبـيتِ ليلته وإن لم يُسْـأَلِ(٣)

ثم يقول :

---

(١) المفضليات ص٣٦٨ .

(٢) هو من بنى عمرو بن حنظلة بن البراجم ، قيل إنه أتى حاتماً الطائى ومدحه .

(٣) المفضليات ص٣٨٤ ، ٣٨٥ .

وإذا لقيت الباهشين(١) إلى الندى

غُبْراً أكفُّهُم بقاعٍ مُمْحلِ

فأعِنْهمُ وايسرْ(٢) بما يسروا بهِ

وإذا هُمُ نزلوا بضَنْكٍ فانْزِلِ(٣)

وكذلك عمرو بن الأهتم يوصى ابنه ربعى بن عمرو بن الأهتم بكثير من الفضائل الخلقية التى تمجد فى المجتمع العربى فيحثه على المحافظة على خلق الآباء والأجداد وإن وجد بعض المصاعب فى سبيل ذلك فالنهاية ستكون بتحقيق الخير الكثير وبين له أن المجد لا يكون إلا بأن يجود الإنسان بما عنده ويدافع عما يجب الدفاع عنه من مال وعرض بشجاعة وجرأة ويكون كريماً يجود بماله إذ لابد من التضحية بالمال والنفس للحصول على الرفعة والمجد وطلب من ابنه رعاية الجار وعدم إهانتة وثنى بالضيف وإكرامه ولا سيما وقت الجدب والقحط حين يبخل الناس بما عندهم على جيرانهم وضيوفهم فالكرماء يبذلون ما عندهم فى كل وقت وأوصاه بالعناية بمساعدة المحتاجين الذين لا يملكون زاداً أو نزلت بهم كوارث قضت على أموالهم وأمره أن يستقبل الضيف استقبالاً حسناً لأنه ينقل تلك المعاملة إلى غيره ويتحدث عنها ويذيع فى الناس أمرها .

لقد أوصيتُ ربعىَّ بن عمروٍ إذا حزبت(٤) عشيرتك لأمورُ

---

(١) الباهش : الفرح .

(٢) يسر فلان : استغنى أى استغن بما استغنوا به أى مدَّ يد المساعدة لهم .

(٣) الضنك : الضيق من كل شىء ، وضنك : ضاق عيشه ، وضنَك الله عيشه .

(٤) حزبت : فجئت ودهمت وهذا التفسير لم يذكر فى المعاجم .

بـــأن لا تُفْسِدَنْ مـا قـد سَعَينـا ... وحِفْظُ السُّورَةِ(١) العليـا كبيـرُ

وإن المجـــدَ أوَّلـــهُ وُعُـــورٌ ... ومَصْـــدَرُ غيـه كـرمٌ وخيـرُ

وإنـك لـن تنـالَ المجـد حتى ... تجـودَ بما يضـنُّ بـه الضـميرُ

بنفسـك أو بمـالك فـى أمـورٍ ... يهابُ ركوبَها الوَرِع(٢) الدَّثُـور(٣)

وجـارى لا تُهينَنّـهُ وضيفـى ... إذا أمْسَـى وراءَ البيتِ كُـورُ(٤)

يـؤوبُ إليكَ أشعثَ(٥) حرفته(٦) ... عـوانٌ(٧) لا ينهنهـا(٨) الفتـورُ

أصبـهُ بالكرامـةِ واحتفظـهُ ... عليـكَ فإن منطِقَـهُ يَسِـيرُ(٩)

ويوصى الحارث بن حلزة ابنه أو راعيه عمراً بأن يكـون كريمـاً وينهـاه عـن البخل ويأمره أن يقدم ألبان الإبـل لضيوفـه وألا يحبس اللـبن فـى ضرعهـا لتسـمن بوضع الماء البارد الذى يساعد على بقـاء اللـبن فيهـا ونصحـه أن يجعـل إبلـه مجـالاً لكرمه وألا يبخل بها فربما يحاول أن يستبقيها فينهبها نـاهب وربمـا يحـاول إبقاءهـا

---

(١) السورة : المجد يقول : لا تهدم ما أثل آباؤك من المجدبل تممه وزد عليه .

(٢) الورع : المتحرج .

(٣) الدثور : الخامل النؤوم .

(٤) كور : كور الرحل خشبه وأداته .

(٥) الأشعث : اليابس وأصله من جفوف الشعر لفقد الدهن .

(٦) حرفته : أذهبت ماله .

(٧) العوان : التى ليست بأول يعنى مصيبة نزلت به مرة بعد مرة .

(٨) لا ينهنها : لا يردها .

(٩) المفضليات ص٤٠٩ ، ٤١٠ وهى من الوافر .

فإذا بالموت يعاجله ويـؤول أمـرها إلى الـورثة فيقسـمونها بينهـم ولا يناله من وراء تلك العناية والحفاظ على المـال وإصـلاحه إلا المذمـة على بخله وشحه ، يقول :

قلـت لعمرٍو حين أبصـرته ... وقدحبا(١)من دُونِها(٢) عـالجُ(٣)

لا تكْسَعِ(٤)الشوْلَ(٥) بأغبارِها(٦) ... إنـك لا تَـدْرِى مـن الناتجُ

واحْلُـبْ لأضـيافكَ ألبانَهـا ... فإن شَرَّ اللبـنِ الـوالـجُ(٧)

رُبَّ عِشارٍ سـوف يغتالُهـا ... لا مُبْطـىءُ الشَّدِّ ولا عائجُ(٨)

يسوقها شَـلاً إلـى أهلـه ... كمايسوقُ البكرةُ(٩) الفالجُ(١٠)

قـد كنـتَ يومـاً ترتجى رِسْلَهـا ... فأطردَ الحائلُ والـدالـجُ(١١)

بينا الفتى يَسْعَى ويُسْـعَى له ... تـاحَ لـه من أمـرهِ خـالجُ(١٢)

---

(١) حبا : دنا واعترض .

(٢) من دونها : من دون الإبل .

(٣) عالج : رمل بين الشام والكوفة .

(٤) الكسع : أن يضع على ضرعها الماء البارد ليرتفع اللبن لتسمن الإبل .

(٥) الشول : الإبل التى شولت ألبانها أى ارتفعت .

(٦) الغبر : بقية اللبن فى الضرع .

(٧) الوالج : الذى يلج فى ظهورها من اللبن المكسوع .

(٨) العائج : الواقف يقول : رب نوق عشار يغتالها سائق ينتهبها من أهلها .

(٩) البكرة : الناقة الصغيرة لا تحمل .

(١٠) الفالج : الفحل الضخم .

(١١) الرسل : اللبن - الحائل : التى لا تحمل - الدالج : التى تمشى بحملها مثقلة .

(١٢) تاح : عرض - خالج : موت يخلجه أى يجذبه إليه فيذهب به .

يتـــرك مـا رقّحَ(١) من عَيشِـــه يعيـثُ فيه هَمَجٌ(٢) هامـــجُ(٣)

مظاهر الكرم :

تجلت مظاهر الكرم فخراً به أو مدحاً أو وصية فى الأريحية التى يطبع عليهـا الكريم بأن يظهر الاستعداد للكرم وقد كان من عادة العرب أن يوقـدوا النـار ليـلاً ليهتدى إليها الضال فى الظلام وطالما فخر الشعراء بإظهار هذه النار ووضعهـا فـى مكان عال يراه القادمون لا سيما الأضياف والمحتاجون ومن الشواهد على ذلك ما يقولـه ربيعـة بـن مقـروم مـن أنـه يـنزل بالأمـاكن المرتفعـة لـيرى الأضيـاف نـاره فيقصدونها وذلك لمـا طبع عليـه من الكرم يقول :

ويأبـى الـــذم لى أنى كريم وأن محلـــى القَبَـلُ اليفـاعُ(٤)

ويذكر عوف بن الأحوص أنه يرفع نـاره ليهتـدى بهـاالضيف المستنبح فـى ظلمة الليل يقول :

رفعـــت له نـــارى فلما اهتدى بها زجـرت كلابى أن يهرَّ عقورها(٥)

وهذا أيضاً المرقش الأكبر يذم قوماً هجاهم بأنهم بخلاء لأنهم يسترون النـار ولا يظهرونها يقول :

ويخـــرج الدخان من خَلَلِ الـ ستر كلَوْنِ الكوْدَنِ الأصْحَمْ(٦)

---

(١) الترقيح : إصلاح المال ، يعيث : يفسد .

(٢) الهمج : البعوض ، شبه الوارث بها لضعفه .

(٣) المفضليات ص٤٣٠ وهى من السريع .

(٤) المفضليات ص١٨٦ القبل:مااستقبلك من الجبل،اليفاع:الموضع المرتفع والبيت من الوافر.

(٥) المفضليات ص١٧٦ .

(٦) المصدر السابق ص٣٤٠ .

ومن تلك المظاهر أيضاً أن توضع القدر على النار لطهى الطعام فى مكان بارز فوق النيران التى تضىء لطالبى الحاجة والضيفان يرون ضوءها يبشر الناظر إليها ويستدل بها على الخير فهى ترشد السائل إلى مكان صاحبها في الوقت الذى يطفىء فيه الناس نيران قدورهم حتى لا تعرف ولا يستدل عليها .

تـرى أن قـدرى لا تـزال كأنها ... لذى الفروةِ(١) المقرورِ أمٌّ يزورها

مُبـرزةٌ لا يُجْعَلُ الستر دونها ... إذا أخْمِدَ النيرانُ لاحَ بشيرُها(٢)

والشعراء يتحدثون عن القدور والجفان المملوءة بالطعام للأضياف فهذا سويد بن أبى كاهل اليشكرى(٣) يمدح قومه بالكرم ويقول إنهم يطعمون فى قدور مملوءة بالطعام وقصاع مفعمة إلى الذروة من لحم الإبل تشبع من يأكل منها لكثرة ما بها يقول :

وإذا هبت شمالاً أطعموا ... فى قدور مشبعاتٍ(٤) لم تُجَعْ

وجفانٍ كالجوابى مُلِئَتْ ... من سَمِيناتِ الذُّرى فيها تَرَعْ(٥)

---

(١) الفروة : جعبة السائل التى يضع فيها ما يعطى .

(٢) المفضليات ص١٧٧ وهما من الطويل .

(٣) هو سويد بن أبى كاهل بن حارثة بن حسل بن مالك بن عبد سعد بن حشم بن ذبيان بن كنانة بن يشكر وينتهى نسبه إلى نزار وهو من الشعراء المخضرمين عاش إلى ما بعد سنة ٦٠ من الهجرة .

(٤) المشبعات : المملوءات .

(٥) الجوابى : الحياض الكبار التى يجبى فيها الماء الواحدة : جابية . الذرى : جمع ذروة وذروة الشىء أعلاه أراد الأسنمة . الترع : الامتلاء وانظر النص فى المفضليات ص١٩٤ والبحر هو الرمل .

ويتحدث المثقب العبدى عن ممدوحه خالد بن أثال فيصف الجفنة التى يضع فيها الطعام وهى آنية كبيرة بأنها مملوءة بالطعام للتوسعة على الناس وأنهم يجدون بها حاجتهم ويسدون رمقهم يقول:

مُتْـــرَعُ الجفنةِ رِبعيُّ النـدى حســـن مَجْلِسُه غير لُطُمْ(١)

ويجعل المرقش الأكبر المراحل التى ينصبها للضيوف والقرى مُعَرَّضة للرائحين والقادمين يأخذون منها ما يشاءون ويأكلون ما يشتهون دون أن يُرَدُّوا عنها يقول :

شُعْثٌ مقادِمُنا نُهْبَى مَرَاجِلُنا نأسُـــو بأموالِنا آثارَ أيْدِينَا(٢)

وعوف بن الأحوص يقول عن قدوره إنها هى التى يلجأ إليها السائل الذى اشتد به البرد فهى كالأم التى تحنو على ابنها ثم هى مملوءة بالطعام فى كل وقت ولا نسمح لأحد أن يستعيرها يقول :

فلا تسألينى واسألى عن خليقتـى إذا رد عافى القدر من يســتعيرها(٣)

وكانـــوا قعـوداً حولها يرقبونها وكانت فتـاة الحـــى ممن ينيرها

تـــرى أن قـــدرى لا تزال كأنها لذى الفروة المقـرور أمٌّ يـزورها(٤)

---

(١) المصدر السابق ص٢٩٤ والبحر هو الرمل .

(٢) المصدر لسابق ص٤٣١ يعنى أننا أصحاب حروب وقرى .

(٣) عافى القدر : قال الأصمعى : كانوا فى الجدب إذا استعار أحدهم قدراً رد فيها شيئاً من طبيخ فالعافى : ما يقونه فيها . (مَن) فاعل (رد) .

(٤) المفضليات ص١٧٦ ، ١٧٧ وبحرها هو الطويل .

ومن مظاهر الكرم أن تلك القدور والجفان والمراجل تطبخ فيها اللحوم وتخرج منها ناضجة فيتحدث الحادرة(١) عن طبخه اللحم فى الأوانى التى تسمى المراجل لجماعة جوعى وقد حاول إنضاجه ليقدمه لهؤلاء الذين قدموا من السفر وأضر بهم الجوع والجهد ويبدو أنهم كانوا متعجلين لا يريدون الانتظار حتى ينضج فأخرجوا الطعام ليأكلوه قبل نضجه و لم يمنعهم من ذلك يقول :

ومعرض تغلى المراجل تحته ... عجّلت طبختـه لرهط جُوَّعِ

ولدى أشعثُ باسط ليمينه ... قسماً لقد أنضجتَ لم يتورعِ(٢)

وكثيراً ما تحدث الشعراء عن نحر الإبل وتقديم لحمها للضيفان .

يقول ربيعة بن مقروم الضبى :

وأضياف ليل فى شمالٍ عَرِيةٍ ... قَرَيْتُ من الكومِ السَّديفَ المُرَعَّبَا(٣)

ويقول المرار بن منقذ :

وكائن من فتى سوء تريه ... يُعلّكُ هجمةً حُمراً وجُونا

يضنُّ يحقها ويذم فيها ... ويتركها لقومٍ آخرينا

فإنك إن ترى إبلاً سِوَانا ... ونصبحُ لا ترين لنا لَبُونَا

فإن لنا حظائر ناعمات ... عطاء اللهِ ربِّ العالمينا(٤)

---

(١) الحادرة لقب وأصل الحادر الضخم ويقال له الحويدرة على التصغير واسمه قطبة بن محصن ابن حرول بن حبيب بن عبد العزى بن خزيمة بن رزام بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان ابن بغيض بن ريث بن غطفان ، وهو شاعر جاهلى .

(٢) المفضليات ص٤٦ .

(٣) المصدر السابق ص٣٧٦ والسديف : شحم السنام . المرعب : المقطع .

(٤) انظر : المفضليات ص٧٢ .

وقوله أيضاً :

تخـرِّمهـا العطـاء فكل يَومٍ يجاذبُ راكب منها قرينـــا(١)

وهذا شبيب بن البرصاء(٢) يتحدث عن كرمه وأنه إذا بـدأ فـى النـوم وأتـاه الضيف يخرج إليه ويستقبله ويقدم له لحوم إبله التى يذبحها ليقرى بها ضيفه ، ولـو كان لها أولاد صغار ترضعها ، وسوف يصيبها الهزال وقد يختار بعضها مما لا ولـد له أو التى ألقت ولدها قبل تمام أيامه أو التـى تشبه الجمـل فـى قوتهـا وضخامتهـا فيعقرها بالسيف ، يقول :

وقد علمـت أم الصـبيين أننـى إلى الضيف قوام السِّنات خَرُوجُ(٣)

وإنـى لأغلـى اللحم نيئـاً وإننى لَمِمَّنْ يُهيـن اللحـمَ وهو نضيج

إذا المرضـعُ العوجـاءُ بالليل عَزَّها على ثَدْيِهَـا ذو وَدْعَتين لهـوجُ

إذا ماابتغى الأضيافُ من يبذل القِرى قرت لى مقلات الشتـاءِ خَدُوجُ(٤)

---

(١) المصدر السابق ص٧٤ .

(٢) هو شبيب بن يزيد بن جمرة بن عوف بن أبى حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مـرة بـن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريـث بـن غطفـان والبرصـاء لقـب أمـه وهـو شـاعر إسلامى أموى وكان شريفاً سيداً فى قومه .

(٣) السنات : جمع سنة بكسر ففتح وهى النعاس الخفيف يقول : إذا طرقنى ضيـف وأنـا نـائم خرجت إليه فأنزلته .

(٤) قرت : أراد قرت أضيافى ، المقلات : التـى لا يعيـش لهـا ولـد جمعهـا مقـاليت وهـى مـن القلت بفتح اللام وهو الهلاك ، الخدوج : التى رمت بولدها قبل تمام أيامه فهـو أصلـب لهـا وأنفسُ .

كـأن رِحـالَ المَيْس من كـل موقف عليهـا بأجْـوَاز الفـلاة سُرُوجُ(١)

وما غـاض مـن شيء فإن سماحتى ووجهـى بـه أمُّ الصَّبـى بليـج(٢)

وقد رأينا بعض الشعراء يصور لنا حاله حين يقدم إليه الضيف ويصور المشهد الطبيعى لعملية ذبح الناقة إكراماً لضيفه فهو يضربها بالسيف ويطعنها فى لبتها ثم يقوم الجازران فيركبان فوقها لارتفاعها ولأنها عشراء يخرجان من بطنها ولدها الكريم يقول عمرو بن الأهتم .

وقمت إلى البرك الهواجـد فاتقت مَقاحِيدُ كُـومٌ كالَمجَادِلِ رُوقُ

بأدْمـاءَ مِرْبـاعِ النِّتـاجِ كأنهـا إذا عَرضت دون العِشـارِ فَنيـقُ

بضربة سـاقٍ أو بنجـلاءَ ثَرَّةٍ لهـا مـن أمـام المنكبينِ فَتِيـقُ

وقـام إليهـا الجـازرانِ فأوْفَدَا يُطيرانِ عنها الجِلْدَ وهى تفـوقُ

فجُرَّ إلينـا ضرْعُهـا وسنـامُهـا وأزهرُ يحبـو للقيـامِ عتيـقُ

بَقِيرٌ جَلاَ بالسـيف عنه غِشـاءَهُ أخٌ بإخـاءِ الصـالحيـنَ رفيـقُ

فبـات لنـا منها وللضيف مَوْهِناً شواء سـمينٌ زَاهِـقٌ وغبـوقُ(٣)

---

(١) الميس : شجر يتخذ منه الرحال ، الأجواز : الأوساط .

(٢) بليج : طلق مسفر مشرق والأبيات ص١٧٢ من المفضليات .

(٣)المفضليات ص١٢٦ ، ١٢٧ وانظر : ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ من هذا البحث .

الصورة الفنية فى التعبير عن الكرم
عند شعراء المفضليات

مصطلح الصورة الفنية :

هذا المصطلح يوجد محتواه عند النقاد العرب القدامى مبثوثًا فى كتبهم وإن لم يكن معروفاً بهذا الاسم الذى عرف فى النقد الحديث فنحن نقرأ عند الجاحظ قوله (والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى والمدنى وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخيّر اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير)(١) .

ويقول القاضى الجرجانى : " وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء فى الجودة والحسن وشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق فيه لمن وصف فأجاد وشبه فقارب ولمن كثُرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض "(٢) .

ويفصل المحدثون أمر الصورة بأنها "الأداة التى ينقل بها الكاتب أفكاره ويصبغ بها خياله فيما يسوق من عبارات ، وجمل ، لأن الأسلوب مجال يبرز شخصية الكاتب ويطبعه بطابعه الخاص(٣) .

---

(١) الحيوان ٣ / ١٣١ ، ١٣٢ بتحقيق عبد السلام هارون .

(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى ص٣٤ .

(٣) الأدب المقارن للدكتور محمد غنيمى هلال ط ١٩٧٧ ص٢٧٩ .

ويكاد المحدثون يتفقون على أن الصورة الأدبية هى الشكل الفنى الذى تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر فى سياق بيانى خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية فى القصيدة مستخدماً طاقات اللغة وإمكاناتها فى الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز ، والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفنى(١) .

وتأخذ الصورة نهجاً عقلياً فى تحليلها لتفسير الأدب فهى تركيبة عقلية تنتمى فى جوهرها إلى عالم الفكر أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع(٢) .

والشعر ليس طائفة الألفاظ وإنما هو مشاعر وأحاسيس وحياة صياغة فيها قوة وتأثير(٣) .

ومما سبق نستطيع أن نتبين العناصر التى تقوم عليها الصورة الفنية وهى : اللفظة المفردة والجمل ، والعبارات والخيال التصويرى والجرس الموسيقى .

ونحاول هنا أن نكشف عن عناصر هذه الصورةفىشعر الكرم الذىندرسه.

أولاً : اللفظة المفردة :

الألفاظ هى مادة الشاعر الأولى التى يصوغ منها ذلك الشكل الفنى له أو يرسم بها صوره الشعرية(٤) .

---

(١) الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى للدكتور عبد القادر القط ط ١٩٧٨ ص٤٣٨ ، والصورة فى شعر الديوانيين بين النظرية والتطبيق لمحمد على هدية ط ١٩٨٤ ص٤٧.

(٢) التفسير النفسى للأدب للدكتور عز الدين إسماعيل ط٤ سنة١٩٥٥ ص٦٦ .

(٣) دراسات فى الشعر العربى المعاصر للدكتور شوقى ضيف ط١٩٥٩ ص٢٣٩ .

(٤) الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى ص٤٣٨ .

والألفاظ هى رموز اللغة تعبر عن طريق الوضع عن معان تدل عليها ولكن الشاعر إذا أراد أن يعبر بها عن عاطفته قد يحتاج إلى تجاوز معانيها المتعارف عليها فتدل على معان جديدة فى سياقها الفنى(١) .

والألفاظ وإن كانت وعاءً للفكر فإن كل لفظة منها كائن حىّ يعيش ويتطور وينتقل ويصوّر ما فى الحياة ، ووقوعُها فى القصيدة يحدِّد قيمتها ويجدّد حياتها(٢) .

ونقادُ العرب القدامى يرون هذا الرأى فابن الأثير جعل الألفاظ المفردة طبقات وبيّن الشريف منها وغيره(٣) .

وقد يظن أن اختيار الألفاظ أمر سهل والحقيقة بخلاف ذلك فالشاعر يأتى إلى أكوام هائلة من الألفاظ فيختار منها ما يعبّر عن واقعه النفسى وما تختلج به نفسه من مشاعر وأحاسيس ، وهذا يتطلب منه جهداً فى وضع اللفظة مكانها من الجرس والإيقاع(٤) .

وهذا ما قرّره بعض القدامى يقول أحدهم (فأحسن الشعر ما توضع فيه كل كلمة موضعها حتى تطابق المعنى الذى أريدت له ويكون شاهداً معها لا تحتاج إلى تفسير من غير ذاتها(٥) .

وهذا كله يدل على أن مقدرة الشاعر تتجلى فى غزارة محصوله من الألفاظ بحيث يمكنه أن يحسن الانتقاء والاختيار منها(٦) .

---

(١) فى النقد الأدبى لكمال نشأت ط١٩٦٥ ص٣٩ .

(٢) الصورة الفنية عند شعراء الإحياء للدكتور جابر عصفور ص١٤٤ .

(٣) المثل الثائر ج١ ص١٩٣ .

(٤) فى النقد الأدبى د. شوقى ضيف ص١٢٩ .

(٥) عيار الشعر لابن طباطبا دراسة وتحقيق محمد زغلول سلام ط١٩٨٠ ص١٢٧ . .

(٦) قضايا النقد الأدبى الحديث د. السعدى فرهود ص١٢٠ .

فإذا رجعنا إلى مجالنا الذى نتحدث فيه عن اللفظة المفردة عند شعراء الكرم فى المفضليات فلن نجد صعوبة فى الاستدلال على غزارة الألفاظ عند الشعراء لأنهم أرباب اللغة مرنوا عليها منذ نعومة أظفارهم يملكون زمامها ورسخت فى أذهانهم ألفاظها وهم يختارون منها ما يناسب موضوع حديثهم كالتعبير عن أوقات الشدة باللزبات وفيه جزالة ورصانة(١) وكاستعمال كلمة (تهرّ) بمعنى تكره فى شعر معاوية بن مالك(٢) ، إلى جانب استعمالها كثيراً فى نباح الكلب وهو المعنى الشائع فى الحديث عن الكرم وكلاب الموصوف به(٣) .

ويشيع عند هؤلاء الشعراء استعمال الألفاظ الجزلة التى يملكونها وإن خفى عنا بعض معانيها للفارق الزمنى الطويل بين عصرنا وما كانت تشتهر فيه من قبل.

ويمكن أن نحصى عدداً ضخماً من الكلمات التى نحتاج إلى شرح معناها للدارسين الآن ، ولا يرجع ذلك إلى حوشيتها وإنما إلى بعد استعمالها عنا ، انظر مثلاً ما وقع فى شعر المرار بن منقذ مثل (صرمة لا شرخ فيها) : تعبيراً عن القطعة من الإبل ما بين العشرة إلى الخمسين .

وما ورد فى شعر عمرو بن الأهتم مثل (البرك الهواجد) معبراً عن إبل الحى النائمة بالليل .

(وأدماء مرباع النتاج) وهى الإبل البيضاء التى يكون نتاجها فى أول الربيع .

وما ورد فى شعر عوف بن الأحوص مثل كلمة (القواء) وهو الخالى من الأرض .

---

(١) ص ٢٩٠ من البحث .

(٢) ص ٢٩٣ من البحث .

(٣) ص ٢٩٨ من البحث .

وما ورد فى شعر ربيعة بن مقروم مثل (الكوم والسديف المرعب) تعبيراً عن لحم الإبل المقطع .

وهذا لا يعنى أن كل ألفاظ هذا اللون من الشعر غامض المعنى بل إن منها الواضح السهل المستخدم الذى لا يغيب عن أذهاننا مثل قول المثقب العبدى :

أكرم الجار وأرعى حقه إن عرفان الفتى الحقَّ كرم(١)

فكلمات البيت كما ترى كلها واضحة المعنى ومثل قول عمرو بن الأهتم عن ضيفه :

أضَفْتُ فلم أفحش عليه و لم أقل لأحرمه إنّ المكان مضيق

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا صبوح راهن وصديق

وهكذا نرى هذا الشعر جامعاً بين ألوان من الألفاظ مختلفات إلا أنها مناسبة لأغراضها معبرة عنها تعبيراً دقيقاً .

والشاعر يستعملها أحياناً فى غير معناها الحقيقى بحسب المقام الواردة فيه فهذا الشاعر ضمرة بن ضمرة النهشلى يقول :

وما أنا بالساعى ليحرز نفسه ولكننى عن عورة الحى ذائد

وإن يك مجد فى تميم فإنه نمانى اليَفاعَ نهشلٌ وعُطاردُ(٢)

فنرى أن استعمال الشاعر ألفاظ (الساعى ويحرز وعورة وذائد ومجد ونمانى). لا تراد بها حقائق معانيها لأن الشاعر نقلها إلى المعانى المرادة له من أنه

---

(١) ص ٢٩٢ من البحث .

(٢) ص ٢٩٨ من البحث .

لا يخص نفسه بالكرم وعلو الهمة ولكنه يريد ألا يمس قومه ذم أو ينالهم تجريح ، فأصوله كرام مثله وجهوه تلك الوجهة الطيبة التى ترفع من شأنه وشأن أسرته وقبيلته أصولاً وفروعاً .

والحديث عن الكرم يحكى حقائق واقعة فى المجتمع العربى مما جعل الشعراء يستعملون معظم الألفاظ فى معانيها الموضوعة لها لأن الشاعر يصف الواقع وهذا يتمثل فى معظم هذا الشعر إلا أننا نجد الألفاظ فى سياقات خاصة تترك معناها الحقيقى إلى المعانى المجازية مثل قول المرار بن منقذ :

وأنا المذكور من فتيانها ... بفَعال الخير إنْ فعلٌ ذُكِر

أعرف الحق فلا أنكره ... وكلابى أُنسٌ غير عُقُر

لا ترى كلبى إلا آنساً ... إن أتى خابطُ ليلٍ لم يَهِرّ

كثُر الناس فما ينكرهم ... من أسيف يبتغى الخير وحر(١)

فترى معى أن القصيدة تعبر عن واقع إلى جانب ما توحى به من معان أخرى وراء ألفاظها .

ولم نجد كلمة - فى هذا الشعر - قد تنافرت حروفها أو خرجت على قياس اللغة أو تعقد معناها بما يخل بشروط فصاحتها ، فهى من الجزل الرصين .

وهكذا استطاع الشعراء أن يعبروا عن غرضهم تعبيراً رائعاً باختيارهم الألفاظ ومحاولتهم تهيئتها فى جو شعورى يعبر عن غزارة الفكر ويحرك الوجدان ويستهويه على نحو جمالى رائع .

---

(١) ص ٣٠٠ من البحث .

ثانياً : العبارات :

يقصد بالعبارات الأسلوب الذى يجرى عليه الشاعر وينسج فيه التراكيب بحيث يشكل ذلك قالباً يفرغ فيه المعنى(١) .

وذلك يقوم على تنسيق الألفاظ لتؤدى المعانى المرادة منها(٢) .

ويتفق النقاد على أن الأديب ينبغى أن يوائم بين اللفظ والمعنى حين يريد التعبير عن مشاعره وأحاسيسه وانفعالاته وعواطفه وأفكاره وبذلك تتحقق الملاءمة بين الشكل والمضمون على معنى أن تتفق اللغة الأدبية التى يستخدمها الأديب مع ما يريد التعبير عنه من المشاعر عن طريق العمل الأدبى(٣) .

ومع ما نعلمه من شرط فصاحة الكلمة ليحسن موقعها فى العمل الأدبى فإن ابن سنان الخفاجى وابن طباطبا يشترطان حين وضعها مع غيرها فى الجمل أن يتضح المعنى ويبعد عن الغموض والتعقيد وأن توضع الألفاظ فى مواضعها حقيقة ومجازاً وفى سياقها بحيث لا ينكر استعمالها فيه فلكل معنى " ألفاظ " تشاكِله ويحسن وضع اللفظ فى موقع ويقبح فى غيره وكم من معنى حسن قد شِيَن بوضعه فى مكان غير مكانه الحق(٤) ويبين ابن طباطبا أن حسن الكلام يكون حين يوائم الأديب بين لفظه ومعناه بألا يخرج المعنى عن العدل والصواب الحق والجائز المعروف المألوف وبذلك يرتاح إليه الفهم فى حين أن الإنسان يستوحش الكلام

---

(١) مقدمة ابن خلدون ط. دار الجيل بيروت ص٦٣٢ .

(٢) الأسلوب لأحمد الشايب ص٤٦ .

(٣) نظرية العلاقات أو النظم بين عبدالقاهر والنقد العربى الحديث د. محمد نايل ط١٩٦٤ ص١١.

(٤) سر الفصاحة تحقيق على فودة المطبعة الرحمانية١٩٣٢ص٦٠ومابعدها وعيار الشعر ص٨.

الجائر والخطأ الباطل والمحال المجهول المنكر فينفر منه ، فإذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوماً مصفّى من كدر العيّ وجور التأليف موزوناً بميزان الصواب لفظاً ومعنى وتركيباً قبله الفهم ، وارتاح له ، وأنس به وإذا ورد الكلام على الفهم بغير هذه الصفة فكان باطلاً محالاً مجهولاً نفاه الفهم واستوحش عند حسه به وتأذّى به كتأذى سائر الحواس بما يخالفها ، وعلة كل حسن مقبول هى الاعتدال كما أن علة كل قبيح منفى هى الاضطراب(١) .

ويرى المرزوقى أن طريقة العرب المختارة فى اختيار الشعر هى الاعتدال فى اللفظ والمعنى دون مغالاة فى أيهما .

ولكل شاعر أدواته ووسائله التى يستخدمها فى عمله الشعرى وتظهر فيها مقدرته الفنية ومشاعره النفسية وثراء فكره وغزارة ثقافته .

والملاحظ بتطبيق هذه الأسس على شعر الكرم فى المفضليات أن هذا اللون من الشعر تتحقق فيه المواءمة بين اللفظ والمعنى على أحسن الوجوه فهؤلاء الشعراء مطبوعون على الفصاحة ويختارون الألفاظ ويوقعونها مواقعها والمعانى التى طرقوها هى معان مألوفة استمدوها من واقع حياتهم فلم يحملوا ألفاظهم معانى لا يقبلها الفهم أو يتأذى منها ، فهم مفطورون على الصدق يعبرون أصدق تعبير عما هم عليه فى الحقيقة ونفس الأمر ، والقارىء لهذا الشعر يجد أنه يصوّر صفة الكرم الذى طبعوا عليه فهذه البيئة الصحراوية كانت تدعوهم إلى مدّيد العون إلى المحتاج بما يحتاج إليه من طعام أو مأوى ولا سيما وقت الشتاء البارد والصيف القائظ فيجعلون ضيفهم يقاسمهم الزاد ويقاسمهم المبيت ، ويعبر شعرهم عن نحرهم الإبل للضيفان والجيران وغيرهم باحثين عن أسمنها لحماً وغير مبالين أحياناً بحملها

---

(١) عيار الشعر ص١٤ وما بعدها .

أو بولدها ، ومن الممكن أن يكون بعضهم قد بالغ أحياناً فـى وصـف هـذا الكـرم لكنها مبالغة مقبولة وتخفى علينا المعرفة الحقيقية إن كان الشاعر أو الممـدوح يفعـل ذلك كاملاً أولا فإذا قرأنا قول سنان بن حارثة المُرى يتحدث عن كرمه:

قد يعلـم القوم إذ طـالـت غزاتهم وأرملوا الـزاد أنـى منفـــد زادى(١)

فهذا معنى واقعى لم يزد على أنه يقدم ما معه من طعام لرفاقه وقت الحـرب إذا طالت المدة ونفد زادهم .

وإذا تحدث بعضهم عن حمل الديات وأداء الحقوق عن بعض الغارمين وفـى المصائب والشدة فإن هذا حديـث واقعى أيضـاً لا مبالغة فيـه ، ومـن ذلـك قـول معاوية بن مالك :

حملتُ حمـــالة القرشـــى عنهـم ولا ظلمـــا أردت ولا اختـــلاباً

وكنـت إذا العظيمـــة أفظعتهـــم نهضت ولا أدبُّ لهـــا دبابـــا

بحمـــد الله ثُم عطـــاء قـــوم يفكـــون الغنـــائـم والرِّقابـــا(٢)

ومع ذلك نرى المـرار بـن منقـذ يتحـدث عـن سعة كرمـه بتقديـم الولائـم للضيفان وذبح نوقه أو إهدائها على نحو واسع جداً فى مثل قوله :

رأت لى صرمة لا شـــرخ فيهـــا أقاسمهـــا المســـائـل والديونـا

تَخَرَّمهـــا العطـــاءُ فكـلّ يـوم يجـــاذب راكـبٌ منهـــا قرينـاً(٣)

فمعنى هذا أن الضيفان والقصاد يفدون إليه كل يوم وهو يقتطع لهم من إبله الكثير ويقسمها بينه وبين الوافدين عليه ، وربما كان فـى هـذا بعـض المبالغـة لكـن

---

(١) ص ٢٩١ من البحث .

(٢) ص ٢٩٢ من البحث .

(٣) ص ٢٩٤ من البحث .

ليس لدينا من الأدلة ما يكشف عن صحة هذه الأخبار أو بطلانها وقد يكون لمبالغات الشعراء نصيب فى ذلك .

ونلاحظ - فى هذا الشعر- السهولة وعدم التعقيد أو الالتواء فالعبارة الشعرية عندهم لا خلل فى ألفاظها أو تركيبها .

وإذا كان الشعراء يستخدمون أساليب متنوعة اسمية وفعلية وينوعون الأفعال بين ماض ومضارع وغير ذلك فلم يخرجوا عما جاءت به اللغة ، ولاستعمال كل لفظ فى موقعه أثر فى المعنى مثل قول الشاعر عمرو بن الأهتم :

ومستنبح بعد الهدوء دعوتهُ وقد حان من نجم الشتاء خفوقُ

فبدأ الجملة بالاسم فى صدر البيت وأتى بجملة الحال (وقد حان) ليدل على أنه يهتم بمن فقد العون من الضيفان فى هذا الوقت المتأخر من الليل وأن هذا النوع من الناس يحتاج إلى العناية فالأمر جد خطير .

وحين يقول هذا الشاعر أيضاً :

وإنى كريم ذو عيال تهمنى نوائب يغشى رزؤُها وحقوقُ(١)

فجاء بالجملة الاسمية مؤكداً على طبيعته فى الكرم ونفى أى شك يخالج أى إنسان فى ذلك .

وحين يستعمل الفعل المضارع يكون لغرض أراده فحين يقول المثقب العبدى :

أكرم الجار وأرعى حقه ... إلخ فقد استخدم الجملة الفعلية التى اشتملت على المضارع ليفيد أن كرمه فى الحاضر والمستقبل .

ولما أحس أنَّ هذا المعنى قد يثير سؤالاً فى نفس السامع : لماذا يهتم بهذا الإكرام وتلك الرعاية ؟ أجاب عن هذا السؤال النفسى فقال : فى الشطر الثانى : (إن عرفان الفتى الحق كرم) .

---

(١) ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ من البحث .

فإكرام الجار ورعايته حق من الحقوق يجب الاهتمام به ومن أصول السماح والكرم أداء هذا الحق لأصحابه ، وأكّد الجملة بـإنّ لينفى الشك من نفس هذا الذى قد يجرى فى ذهنه هذا السؤال لأنه متردّد فى قبول المعنى الذى طرحه الشاعر فى صدر هذا البيت وهذا يدل على مواءمة الشاعر بين اللفظ والمعنى .

وحين نرى معاوية بن مالك يقول :

حمَلْتُ حمالة القرشى عنهم .... إلخ .

نجده عبّر عن حدث قد انقضى تعبيراً حقيقياً ثم قال بعد ذلك : (ولا ظلماً أردت) فقدم المفعول المنفى " لا ظلما " ولم يقل (ولا أردت ظلماً) لأن المخاطبين يعلمون أن الشاعر قام بحمل الديات لكنهم يفسرون ذلك بحسب هواهم بأن يكون ذلك " ظلماً " منه أو خديعة كأن يعرفوا أنه يقصد أغراضاً من وراء ذلك لا تليق بالمنفق فنفى ما دار فى نفوسهم من احتمال الظلم أو الخديعة وقال بعد ذلك فى البيت التالى :

أعوّدُ مثلها الحكماء بعدى ..... إلخ .

فاستخدم الفعل المضارع (أعوّد) لأنه يريد أن يقتدوا به فى الزمن المستقبل.

كما يطالبهم أن يقتدوا به فى الزمن الحاضر وفق ما يفعل هو بعد أن رأوا منه هذا العمل الطيب .

وهكذا إذا سرنا نتتبع عبارات الشعراء نرى أنهم لم يجاوزوا الصواب اللغوى وأن صياغتهم جاءت بعيدة عن الإغراب ولا تخرج عن مألوف الكلام مع جزالة اللفظ والبعد عن التعقيد والتكلف ولا شك أن

أى عمل أدبى يسلك هذا المسلك يكون سهلاً قريباً من الأفهام ويكتب له الذيوع والانتشار ويوصف بالجودة عند النقاد(١) .

ثالثاً : الخيال التصويرى :

يتحدث النقاد القدامى كابن رشيق وقدامة بن جعفر عن ضرورة توافر الخيال فى صناعة الشعر فابن رشيق يرى حتمية الخيال فلا يكون الشاعر شاعراً إلا به(٢) وكذلك قدامة يرى الرأى نفسه فلا يعد الشاعر شاعراً إلا بما يحتويه شعره من صناعة(٣) .

والخيال نشاط شعرى حىّ يبعث فى نفوسنا التطلع والشوق إلى مثل ما تطلّع وتشوّق إليه المتخيّل ويحلّق بنا فى مثل الأجواء التى حلّق فيها المتخيل ولفت انتباهنا ووجداننا وعقلنا .

والخيال فى صورته الأولية أداة تنظيمية تمكننا من التمييز والترتيب ، ومن التفريق والتركيب وبدون هذه الأداة لا ندرك سوى مجموعات من المعطيات الحسية التى لا معنى لها ، فالخيال هو الأداة التى تجعل منها قوة مؤثرة(٤) .

والخيال الشعرى من أسباب قوة الشعر يؤدى إلى خصب المعانى ويحلّق به الشعراء فى كل أفق تبعاً لتعدد روافده وتنوّع موارده(٥) .

---

(١) الأصول الفنية للأدب للأستاذ عبد الحميد حسن ص٨٠ .

(٢) العمدة فى صناعة الشعر ونقده تحقيق د. مفيد محمد ط٤ سنة ١٩٦٣ ج٢ ص٩٦ .

(٣) نقد الشعر ص ٦١ .

(٤) قضايا النقد الأدبى الحديث ص١٣٩ .

(٥) البلاغة تطور وتاريخ ط٤ سنة ١٩٧٤ ص٢٠٠ .

وهناك أنماط للخيال وطرائق للتعبير عنه .

والشاعر يضفى مجالاً فنياً بخيال يجعل صوره الواقعية أكثر غنىً من الواقع نفسه لما جمع فى صوره بين الواقع المباشر وبين الصياغة الفنية والمدركات غير المرئية التىَ أدركها الشاعر(١) .

ويستخدم الخيال فى التعبير عن أى قيم إنسانية كالكرم والشجاعة . إلخ من أجل التأثير فى عواطف الآخرين ومشاعرهم وعن طريق الخيال تأتى الصور الحسية فتؤدى إلى متعة قوية فى النفوس وتصبح وظيفتها أساسية وليست كمالية أو ثانوية بما حققته من سموّ فى المعانى والأفكار(٢) .

وللشعراء العرب القدامى أنماط من الخيال وصور تبدو فى تشبيه الحسىّ بالحسىّ ، والمعنوى بالحسىّ وعكسه ، كتصوير وجوه القوم بكواكب مضيئة مثلاً، وتصوير اتزان الشخص برسوخ الجبال إلى غير ذلك .

والشاعر فى خياله يضم المتشابهات ويقتفى المتماثلات ، ومن هنا رأينا أن الصورة الأدبية ومباحثها لدى علماء البلاغة والنقاد العرب تؤثر التشبيه وتعتد بقيمته فى العمل الأدبى أو الشعرى وتعتده ركناً من أركان السبق والفوق وكانت العرب تفاضل بين الشعراء وتسلم بالسبق فى الشعر لمن وصف فأجاد وشبه فقارب(٣) .

(والتشبيه جار كثيراً فى كلام العرب حتى لو قيل إنه أكثر كلامهم لم يبعد)(٤) .

---

(١) الصورة الأدبية لمصطفى ناصف ص٨٥ .

(٢) دراسة الأدب العربى لمصطفى ناصف ط الدار القومية للطلبة دون تاريخ ص٥٦ .

(٣) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص٣٢ .

(٤) الكامل فى اللغة والأدب للمبرد . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة ج١ ص٦١ .

ويفرد قدامة بن جعفر فى كتابه (نقد الشعر) باباً خاصاً للتشبيه ويعدّه أحد أغراض الشعر الأساسية ، واتجه فى الصورة التشبيهية إلى إبراز الحركة السريعة والصورة البصرية الساكنة والصورة المتتابعة وأورد أمثلة لذلك(١) .

وذكر ابن رشيق أن التشبيه هو (وصف الشيء بما يقاربه ويشاكله)(٢) .

ويقول ابن طباطبا : (من كان قبلنا فى الجاهلية الجهلاء وفى صدر الإسلام من الشعراء كانوا يؤسسون أشعارهم فى المعانى على القصد للصدق فيها مدحاً وهجاء وافتخاراً ووصفاً وترغيباً وترهيباً إلا ما قد احتمل الكذب فيه فى حكم الشعر من الإغراق فى الوصف والإفراط فى التشبيه وكان بجرى ما يوردونه منه بجرى القصص والمخاطبات بالصدق)(٣) .

ويقول أيضاً : (واعلم أن العرب أودعت أشعارها الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها وأدركه عيانها ومرّت به تجاربها وهم أهل وبر صُحُونهم البوادى وسقُوفُهم السماء فليست تعدو أصافهم ما رأوه منها وفيها)(٤).

والخيال عنصر قوى من عناصر الصورة الأدبية فاللغة بتراكيبها المتنوعة تبلغ أعلى مراتب القدرة على التصوير حين يخرج الشاعر باللغة عن مدلولها المباشر ومعناها الشائع ويتجاوز فيه المألوف إلى تركيب ينسجه من اللغة فالخيال عنصر أصيل من عناصر العمل الفنى وخصوصية اللغة هى أساس من مقوماته .

---

(١) نقد الشعر تحقيق بونياكر ط ليدن سنة ١٩٥٦ ص٦٦ .

(٢) العمدة ج١ ص٢٥٦ .

(٣) عيار الشعر تحقيق محمد زغلول سلام . القاهرة ١٩٨٠ ص٩ .

(٤) عيار الشعر ص١٠ و ١١ .

ولولا ذلك لانهارت الحواجز بين لغة الفن ولغة الحياة(١) وتستعمل الصورة للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسى وتطلق أحياناً مرادفة للاستعمال الاستعارى للكلمات وقد يظن أن ربط الصورة بالاستعمال الحىّ أكثر صواباً لأنه أوفى تحديداً(٢) .

والاهتمام بالتصوير يظل قائماً مادام هناك شعراء يبدعون ونقاد يحاولون تحليل ما أبدعوه وإدراكه والحكم عليه(٣) وهذه الصور تبقى الأداة الأولى والأساسية تُفَرِّقُ عصراً من عصر وتياراً من تيار وشاعراً من شاعر وتدل على قيمته وترمز إلى عبقريته وشخصيته وتحمل خصوصية فرديته لأنها الأداة التى ينقل بها تجربته ولا يمكن أن يستعيرها من سواه(٤) وبناء على ما تقدم فإننا نرى أن الخيال يشمل الصور المرئية والسمعية والبصرية والعقلية التى يأتى بها الشاعر بما يكشف عن رؤيته وقدرته الفنية ويدخل فى ذلك التشبيه والاستعارة إلى جانب استخدام وجوه أخرى فى استعمال الألفاظ والتراكيب ، والنقاد القدامى والمحدثون على سواء يذكرون أنماط الخيال العربى من التشبيه والاستعارة والكناية وشعراء العرب القدامى ولا سيما فى العصرالجاهلىوصدرالإسلام كانوا يستمدون صورهم الفنية من بيئتهم التىيعيشون فيها وينتزعون الصور مما حولهم من أشياء محسوسة تقع تحت أعينهم وتحت حسهم والشعراء الذين نقوم بدراسة أشعارهم لا يخرجون عن هذا الإطار .

---

(١) من موضوع نداء القيم فىمقدمةالديوان للدكتور يوسف خليف ط القاهرة ١٩٦٧ص٢٦.

(٢) الصورة الأدبية للدكتور مصطفى ناصف ط ١٩٥٨ ص٣ .

(٣) الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى د. جابر عصفور ص٥ .

(٤) الصورة الفنية فى الشعر العربى الحديث د. نعيم عبد الباقى ط ١٩٧٢ ص٨٣ .

فى مجال التشبيهات :

جاءت التشبيهات فى شعر الكرم المدروس كما ذكر ابن رشيق وغيره من النقاد مستمدة من البيئة ومحسوسة لا تحتاج إلى كبير تأمل وليس فيها تعقيد فى معرفة وجه الشبه وتأتى التشبيهات مشتملة على المشبه والمشبه به وأداة التشبيه ويدرك وجه الشبه بسهولة ويسر وأحياناً لا تذكر الأداة فيما يعرف بالتشبيه البليغ ومن أمثلة ذلك ما ورد فى شعر عمرو بن الأهتم وهو يتحدث عن كرمه لأضيافه يقول :

وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت مقاحيد كوم كالمجادل روقُ

بأدماءَ مرباع النتاج كأنها إذا عرضت دون العشار فنيقُ(١)

ففى البيت الأول شبه النوق التى اهتم باختيار واحدة من بينها لقرى الضيف بالمجادل وهى القصُور فى ضخامتها وعظمها ، وأداة التشبيه هى الكاف كما نرى، ولما كان القصر من أبرز عناصر الأبنية فى المدن العربية أو المجاورة للعرب دالاً على التميز بالحسن والإبداع الذى يثير الإعجاب والتطلع إلى جماله وروعته فإن هدف الشاعر أن يوضح قيمة ما يقدمه للأضياف من حسن الذبيحة وكونها محطاً للأنظار مدعاة إلى الضن بها إلا أن النفوس السخية المعتادة على الكرم تقدم أبدع ماعندها طيِّعة لاتضن ولا تبخل ولا يحملها حب التملك لها على ترك الكرم .

وفى البيت الثانى شبه الأدماء وهى الناقة البيضاء التى وقع اختياره عليها بالفنيق وهو الفحل الذى يودع للفحلة ووجه الشبه واضح وهو عظمها وأنها أفضل النوق وأداة التشبيه هى كأن .

---

(١) انظر ص٢٩٦ من البحث .

ومما ذِكرَتْ فيه أداة التشبيه أيضاً قول متمم بن نويرة وهو يتحدث عن كرم أخيه مالك :

وأرملة تمشـــى بأشعـت مُخْتَـل كفـرخ الحُبارى رأسه قد تضوعا(١)

فيشبه الأرملة وهى تحمل طفلها النحيل من قلـة الغـذاء بهـذا الطـائر الجـائع وفى عرض صورة الطفل الجائع الذى تحمله أمه بصورة فرخ الحبـارى النـاحل مـن الجوع ما ينقل المعنـى المراد حاكياً المظهـر الدافـع إلى العطـف والإشـفاق محركـاً النفوس إلى التوجه إلى الآخرين إذا كانوا على هذا المظهر المؤلم للنفس فصورة هـذا الطائر معروفة لديهم مألوفة صباح مساء ونقلها علـى هـذا الوضـع يجعـل القلـوب الرحيمة تتحرك وتأسى لما يأسى له الآخرون وتتوق إلى النجدة والإغاثة .

وفى قصيدة المسيب بن علس التى يمدح بها القعقاع بن معبد يتحـدث عـن اندفاع الماء فى خليج يشبه به الممدوح فى الكرم بخيلٍ بلق ... وهى ما فيها بيـاض وسواد فيقول :

وكأن بلـق الخيـــل فـى حامـاته يـــرمى بهـــنّ دوالـــى الزّراع(٢)

وجاءت صورة الخليج المتدفق الأمواج لتجعل لكرم الممدوح حركة وفيضانا على العفاة وتصوركرم الممدوح يخرج عن طيب خاطر بحركـة عفويـة طبيعيـة غـير متأثرة بعوامل البخل والشح وقد جاءت حركة اندفاع الماء قوية لا يمكن صدها أو منعها من التدفق والجريان واتضح ذلك من تصوير حركة الأمواج بصـورة حركـة خيل تندفع فى سباقها السريع وهى تكشف عن اعتمالات نفسية تظهر فى حركـة وسرعة على حديث الشاعر الذى جعل الصورة متحركة متسـارعة لا تبطـىء فـى الفيض ولا تتوقف عن الوصول إلى المحتاج .

---

(١) ص٣١٥ من البحث .

(٢) ص ٣١٨ من البحث .

وفى قصيدة الجميح يتفجع على نضلة بن الأشتر فيقول :

أو مَنْ لأشعث بعلِ أرملةٍ مثل البليـــة ســـملة الهدم(١)

وهنا صوّر المحسوس بالمعنوى ويـؤدى هـذا التصويـر إلى التحليـق فـى آفـاق المعانى علىنحو مؤثر فتصوير الفقير البائس بصورة البليةيوضح فظاعة منظره وآلامه وتخيله مجموعة من الكآبة والشقاوة التى جعلت منه ظلماً واقعاً وألماً متحركاً .

وفى قصيدة الحارث بن حلزة يوصى ابنه بالكرم ويتحـدث عمـا قـد يجمعـه صاحب المال من الإبل وتكون من نصيب من ينتهبها ويسرقها متعجلاً بها يقول :

يسـوقها شـــلاً إلـى أهلـه كما يسـوق البكرة الفـــالجُ(٢)

وهو يقصد أن السارق يسوقها مسرعاً ، وهذا أيضاً سـويد بـن أبـى كـاهل اليشكرى يقول فى مدح قومه بالكرم واصفاً القدور الممتلئة بالطعام

وجفانٍ كالجوابى ملئت ..... إلخ(٣) .

فهو يشبه الجفان وهى القدورُ بالحياض الكبار التى يجبى فيهـا المـاء وواضـحٌ أنه يريدُ اتساعها لكثير من الطعام كما تتسع الحياضُ للمـــاء الكثـير و الشـاعر هنـا يلفت الأنظار إلى شىء معهود فى البيئة معروف بغزارة مـا فيـه ممـا لا يخفـى علـى أحد ويوحى هذا التلاؤم بين الجفان والأحواض التى تزخر بالماء بجود طبع الشـاعر أو الممدوح فالنفس المجبولة على تقديم القليل للضيفان والشح بالكثير لا تعرف لهـا مكانا فى البيئة العربية التى ينبـض شـعورها بالسـماح والصـورة هنـا تعطـى بيانـاً للطبع السخى وتظهره فى صورة جفنة بهـذا الحجـم الكبـير الـذى يـراه النـاظرون

---

(١) ص٣٢٠ من البحث .

(٢) ص ٣٢٣ من البحث .

(٣) ص ٣٢٥ من البحث .

فيدهشون له وذلك يخلق فى الذهن تصوراً قائماً على مشاعر نفسية تهدر بالشعور الفياض القائم على دليل لا يقبل الجدال .

ـ ومن ذلك أيضاً قول مرقش الأكبر يهجو أقواماً بالبخل

ويخـــرجُ الدخـــان مـــن خـــلل الـ ستر كلـون الكـودن الأصحـم(١)

فشبه الدّخان الخارج يلون البرذون القليل السواد وفيه صفْرة ليعبِّر عَنْ بـطء الدخان فى الخروج من بين ستر الباب لأن هؤلاء الأقوام يحجبون نيرانهم أن يراهـا الأضياف وهذا يرسم صورة شح هؤلاء ومحاولة كتمانهم طبخ الطعام حتى لا يعلم به أحد لكن يبدو إخفاؤهم أمرهم بصورة الدخان الذى ليس له هذا الانطلاق فهو دليل على أنهم يحاولون إخماد النار كلما شبت، وتسرب الدخان دليل علـى ذلـك الإخفاء المتعمد بما يفضح أمرهم ويكشف بخلهم ويرتبط ذلك بهـذا اللـون المتوافـر فى شكل هذا الحمار الذى يحمل الذهن على التفكير فى ذلك الشعور السيء القبيح.

وهذا أيضاً عوف بين الأحوص يتحدث عن قدْرِهِ التى يجلـس حولهـا العفـاة قائلاً :

تـــرى أن قِـدْرى لا تـــزال كـــأنّها لـذى الفـــروة المقرور أم يزورها(٢)

وتأتى صورة التشبيه ببنى الإنسان معبرة عن مضمون شـعرى بديـع فتجيـىء صورة التفاف العفاة الجائعين حول القدر فى صورة التفاف الأبناء حول أمهم التى تقدم لهم العطف والحنو والشفقة ولا تحرمهم من حاجتهم إلى الغذاء بل تلبى لهـم ما يشاءون وتبذل كل جهدها فـى العنايـة بهـم مؤثـرة لهـم علـى نفسـها ومقدمـة

---

(١) ص ٣٢٤ من البحث .

(٢) ص ٣٢٦ من البحث .

حاجتهم على حاجتها الخاصة فصورة القدر على هذا النحو تجعل لها قلباً حياً نابضاً بالحياة باحثاً عن المحتاجين ويصوِّر الشاعر هذه القدر بصورة متحركة تبعث من حولها الطمأنينة والراحة والاستقرار وهكذا يثير الشاعر نفوس سامعيه بما يعتمل فى نفسه ويكشف عن معدن الكريم وحيويته وأريحيته للكرم وتحركه له .

ومما تُرِكَتْ فيه أداة التشبيه قول المخبل السعدى على لسان العاذلة :

إنّ الثراء هو الخلود ..... إلخ(١) .

فيشبه الثراء بالخلود فى علو المنزلة وتحقق السعادة

وهذا المثقب العبدى يقول :

أجعل المال لعرضى جنة ..... إلخ(٢)

فقد شبه المال بالجنة وهى الدرع التى يلبسها المحارب فى الحماية ودفع الضرر ، وجاء تصوير بذل المال ليحقق لصاحبه المكارم ويمنع عنه الذم بصورة الجنة ذلك اللباس الحربى المحصن لصاحبه من أن تصيبه الرماح أو السيوف أو أدوات الحرب بأنواعها لأنه يتحصن داخلها وهذا يجعل صورة المال المبذول تبدو سياجاً له خيوط تنسج كالثوب تحول دون وصول الذم إليه وتجعل السامع والقارىء يشاركان الشاعر فى رؤية مظهر المال المبذول سياجاً يمتد أمام العيون فيدع الشعور النفسى يتدفق لهذا المشهد

وهذا أيضاً مرقش الأكبر يقول فى هجاء قوم :

---

(١) ص ٣٠٣ من البحث .

(٢) ص ٣١٩ من البحث .

لســـنا كأقـوامٍ مطـاعِمُهُمْ كسْبُ الخنـا ونهكـة المحـرم(١)

فمطعم هؤلاء مُشبّه بالحرام القبيح من الكسب وقد حذف أداة التشبيه ومـا أفظع الصورة التى تقوم على التنفير من طعام حرام قام أصحابه على جلبه من طرق غير مشروعة فهو خبيث المنبع والأصل وقد أظهر الشاعر أصحابه أمام النـاس غـير شرفاء الحياة وما أقبح أن يبدو الإنسان بمظهر غير شريف وهذا القران بـين المطعـم الذى يراه الناس قبيحاً وبين الأشياء المحرمة المتعارف عليها مما يدعو إلى النفور منهم ومجانبتهم والنظر إليهم على أنهم لا شرف لهم مما يثير مشاعر الاشمئزاز.

ونجد بعض الشعراء يلجأون إلىالتشبيه الضمنى كقول المسيب بن علس مادحاً:

ولأنت أجود من خليج مفعم متراكـــم الآذىّ ذِى دُفـــاع(٢)

وقد قلب التشبيه فادعىأن الممدوح أغزر عطاءً منهذا الخليج المملوء بالأمواج.

ونرى من تلك التشبيهات الوضوح والارتباط بالبيئة من حيوان وطير ومياه وسماء وأرض إلى غير ذلك .

٢ – الاستعارات :

وتكثر الاستعارات بنوعيها التصريحية والمكنية فى هذا الشعر المعبر عن الكرم حتى لا تكاد تخلو قصيدة أو نص منها .

والاستعارة كما نعلم مبنية على التشبيه ونرى أن المستعار أيضاً مـأخوذ مـن البيئة مما يبين ارتباط الشاعر العربى ببيئته .

---

(١) ص ٣١٦ من البحث .

(٢) ص ٣١٨ من البحث .

ومن ذلك قول ربيعة بن مقروم مادحاً قومه :

يهينون فى الحق أموالهم ..... إلخ(١) .

فهو يريد أنهم ينفقون بسخاء غير مبالين بالمال أو حاسبين له حساباً فاستعار الإهانة للإنفاق الكثير وهى استعارة جيدة تتفق و تعاليم الإسلام حين ينعى الرسول صلى الله عليه وسلم على الممسكين الحريصين على المال الذين يعبدونه فيقول : (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة(٢) إلى آخر الحديث ، واستخدام الإهانة التى هى من خصائص عالم الإنسان ويقابلها الاحترام والتقدير يجعل المال فى صورة حسية مجسدة كأنها مخلوق يتلقى هذا اللون من الإساءة فيجعله الشاعر شاخصاً أمام الناظرين بوجهه الآدمى ويجعل العقل يفكر فيما حل به من عدم التكريم وهل يستحقه أو لا ثم يفاجئنا الشاعر بأنه صوره هذا التصوير دفاعاً عن حق فيجعل لصرف المال فى الخير حركة و يصوره شيئاً بارزاً محسوساً فيتحرك الشعور ويهيج الإحساس ويشير إلى أن الموصوف بالكرم لم يحتفظ بهذا المال أو يجعله شيئاً جديراً بالضن به والحرص عليه .

والاستعارة هنا فى (يهينون) تصريحية تبعية

ومن ذلك قول المرار بن منقذ عن إبله التى يقدمها فى العطاء :

تَخَرَّمها العطاء فكل يوم يجاذب راكب منها قريناً(٣)

فهو يريد أن يقول : إن العطاء استأصلها وأفناها استعارة مكنية على تشبيه العطاء بعاقل يفنى مالديه من المال وهنا يوضح المعقول بالمحسوس ويجوز أن تكون

---

(١) ص ٣١٣ من البحث .

(٢) دليل الفالحين ج ٢ ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

(٣) ص ٢٩٤ من البحث .

من باب المجاز العقلى بإسناد الفعل تخرم إلى غير فاعله الحقيقى على اعتبار أن الذى تخرمها هو صاحبها بسبب العطاء الكثير فأسند الفعل إلى سببه ، وجاء التعبير بالتخرم وهو الاستئصال واضعاً أمام الناظر صنوف المال وهو يأخذ بعضه إثر بعض ويتصرف فيه لهذا وذاك من الغادين والرائحين وإذا كانت الصورة قد تعنى التصرف غير المحسوب الناشىء عن السفه والطيش والهلاك وهى صورة تثير الشعور وتحرك الوجدان فإن المتأمل فيها يدرك أن صاحب هذا التصرف فى غاية العقل والحكمة والصورة حركية للعطاء الذى تبدو فيه الإبل يخرج بعضها إثر بعض فى تتابع وتراسل والصورة تمر أمام العين فهى دائمة غير منقطعة فى منظر عجيب ومثير فهى تنقص عنده وتنتشر فى الناس .

وفى قصيدة معاوية بن مالك استعارات منها حديثه عن مساعدة قومه عند الشدة فيقول :

وكنتُ إذا العظيمةُ أفظعتهم نهضتُ ولا أدبّ لها دِبابا

ففى الفعل (أفظعتهم) استعارة على معنى أنها نزلت بهم وعلى هذا الأساس تكون الاستعارة تصريحية تبعية ومن الممكن أن تكون مكنية بجعل العظيمة ذات حيوية تخيف و تفزع كأنها وحش كاسر أو عدو مغير والصورة فيها تجسيد للمعنوى فكيف يرى الإنسان البلية وهى تنتشر فى الناس ويهب الشاعر لمصارعتها والقضاء عليها وهو منظر نقله الشاعر بصورة حية وهو تجسيد حى للدفاع عن قومه دون بطء أو تثاقل وهذا يحرك النفس ويثير المشاعر.

وهو يتحدث عن حمله الديات فيقول :

حملْت حمالة القرشىّ عنهم ولا ظلماً إردت ولا اختلاباً

سبقت بها قدامة أو سميراً ولو دعيا إلى مِثْل أجابا

سأحملها وتعقلها غنيٌّ وأورث مجدها أبدا كلاباً(١)

فالتعبير بقوله (سبقت بها قدامة أو سميراً) وهما من أشراف قومه ، وكانا يذودان عنهم تعبير استعارى لأن المراد بالسبق هنا الفوق ، أراد أنه فاقهم وتقدم عليهم فى حمل الديات لا أن السبق فى ميدان المشى ونحوه والاستعارة هنا تصريحية أيضاً ، وهو تعبير عن المعنوى بالمحسوس والتعبير بقوله (أورث مجدها كلاباً) استعارة أيضاً فالمورث هو المال الذى يخلفه المورث والمجد ليس من هذه الموروثات فإما أن تكون الاستعارة مكنية على تشبيه المجد بما يورث من مال ونحوه أو تكون الاستعارة تصريحية فى الفعل أورث على معنى الانتقال والتواصل بين الأجيال فيما يؤدى إلى الشرف والرفعة ، وهذا التعبير سائد فى قصائد هذا اللون وغيره من الشعر قديماً وحديثاً وأصبح تعبيراً شائعاً ولا شك أن هذه الاستعارات نقلت المعنى وجسدته فى صورة حركية حية وبهذا يتبين أن فى الشعر القديم ما يسمى فى نظريات النقد الحديثة بالتجسيد الذى يضع الأمور الفكرية فى صورة مرئية فتزيد المعنى وضوحاً وتأكيداً .

ومن ذلك قول الشاعر المرقش الأصغر مخاطباً العاذلة :

اربعى إنما يريبُكِ منى إرثُ مجد وجدٌّ لُبٍّ أصيل(٢)

ومن الاستعارات أيضاً قوله :

وإنى كريم ذو عيال تهمنى نوائب يغشى رزؤُها وحقوقُ(٣)

---

(١) ص ٢٩٢ من البحث .

(٢) ص ٣٠٤ من البحث .

(٣) ص ٢٩٤ من البحث .

فالمراد بقوله (يغشى رزؤها) أنها تنتشر فى الناس والمعنى الحقيقى للفعل يغشى هو يغطى والرزء أو المصيبة لا يغطى وإنما ينتشر فعبرّ عن الانتشار بالغشيان على سبيل الاستعارة التصريحية التبعيةوالصورة هنا تبين قتام المصائب وظلامها وإحاطتها بالناس على شكل مفزع وكأنها الليل الذى يأتى بعد غياب النهار وفيها ما يعطى القارىء والسامع من هولها وتأثيرها النفسى الحاد وكأن الشاعر يمنع عن قومه هذا الذى يهدد حياتهم وفى ذلك دليل على قيامه بالعمل النافع المانع للضرر عنهم وتحمله أقسى ما يمكن تحمله فى سبيل ذلك .

وفى قصيدة لهذا الشاعر أيضاً يقول عن اختياره لأفضل إبله ليقدمها لضيفه:

وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت ... إلخ(١)

عبر عن ترك الإبل كلها إلى واحدة منها طيبة سمينة وهى (الأدماء) بأن النياق الأخرى اتخذت وقاية لنفسها بهذه الناقة الحسنة فقدمتها وأفلتت هى من الذبح وهذا تعبير عما أراده الشاعر من اختيار أفضل نوقه وأكرمهن طعاماً لضيفه فخلع على النوق صفة العقلاء والصورة حسية تعطى بياناً لما يحدث حال اختيار واحدة منها للذبح وتنقل الواقع مما يحدث من حركة واضطراب فى الحظيرة التى تضم هذه الإبل فهذه تفلت وتلك تجرى خوفاً من أن يقع عليها الاختيار وكأنها ذات عقل وفهم تعرف ما يراد بها .

وفى قول عوف بن الأحوص :

ومستنبح يخشى القواء ودونه من الليل بابا ظلمة وستورها(٢)

---

(١) ص ٢٩٦ من البحث .

(٢) ص ٢٩٨ من البحث .

استعارة مكنية إذ جعل الظلمة التى أحاطت بالضيف فى جوف الليل البهيم بيتاً له باب وستور وهو لا يكاد يخرج من هذا البيت الذى أحاطه من كل جانب وكأن لقاء الكريم له يخرجه مما هو فيه إلى حيز النور والطمأنينة وهدوء النفس والأمان من الروع الذى كان فيه وهى صورة ترسم بالألوان لوحة فنية للجو النفسى الذى يعيش فيه هذا الضيف .

وفى شعر ضمرة النهشلى قوله :

وما أنا بالساعى ليحرز نفسه ولكننى عن عورة الحى ذائد

فهنا فى قوله (ليحرز نفسه) (وعورة الحى) استعارتان فالحرز هو المكان الحصين المنيع يلجأ إليه والمعنى المقصود هو أن الشاعر بكرمه لا يفعل شيئاً للحفاظ على شرفه فقط فعبر بالتحصين والمناعة عن حفظ الشرف والمقصود بعورة الحى العيوب التى قد تلحق بالقبيلة نتيجة تقصيرها فى الكرم فالاستعارة هنا تصريحية أصلية ولا ريب أن التعبير فيه إبداع أبرز المعنى المراد وأوضحه بما توحى به الاستعارة من جمال ودقة .

وفى قول تأبط شرا :

بل مَنْ لعذّالَة خذّالة أشِب حرَّق باللوم جلدى أى تحراق(١)

استعارة مكنية فى التعبير عن الإيذاء الذى يقع على الشاعر بلوم العاذلة له فشبه اللوم بالنار التى تحرق الجلد ويجوز أن تكون استعارة تصريحية بجعل الفعل حرَّق بمعنى آذى .

---

(١) ص ٣٠٨ من البحث .

وفى قول ربيعة بن مقروم :

أليســـــوا الذيـــن إذا أزمـــــة ألحّت على النـــاس تُنســـى الحُلوما

يهينـــــون فى الحـــق أمـــوالهم إذا اللزبات التْحيـــن المســـــيمَا(١)

نجد الاستعارات تتوالى فالأزمة تلحّ على الناس وهو تعبير عـــن كـثرة نزولها بالقوم وإصابتها لهم واللزبات تصيب صاحب الإبل السائمة وتنال منه وهى مكنية أيضاً إلى جانب ما شرحنا من قبل عن الاستعارة فى (يهينون أموالهم) .

وفى قول مرقش الأكبر فى هجاء قوم :

حتـــى إذا مـــا الأرض زينهـــــا نبت وجـــنَّ روضـــها وأكـــمّ

ذاقـــوا ندامـــة فلوأكلـــوا الـ خطبـــان لم يوجـــد له علقـــم

لكننـــــا قـــــوم أهـــاب بنـــا فـــى قومنـــا عفافـــة وكـــرم

أموالنـــا نقـــى النّفُـــوس بهـــا مـــن كل ما يدنـــى إليـــه الـــذم(٢)

نرى جمال التعبير وروعته فى الأبيات التى تتخذ الاستعارات والمجاز طريقاً لها ففى إسناد التزيين إلى (النبت) مجاز عقلى من إسناد الفعل إلى سببه وفى (ذاقوا ندامة) استعارة تهكمية مكنية .

وفى قوله (أهاب بنا عفافة وكرم) إسناد الفعل إلى سببه أيضاً علـى طريـق المجاز العقلى فقد ارتفع شأنهم وعـزّوا وكرمـوا بسـبب عفـافهم وكرمهـم ، وفـى البيت الأخير جعل الأموال التى يبذلونها فى الكرم تقى النفـوس وكأنهـا السـيوف

---

(١) ص ٣١٣ من البحث .

(٢) ص ٣١٦ من البحث .

أو الجنة التى يلبسها المحارب فتمنع عنه الرميات على سبيل الاستعارة المكنية أو التصريحية إن أجرينا الاستعارة فى الفعل (نقى) وفيها من التجسيد وإظهار المعنويات فى صورة المحسوسات ما فيها .

وفى قول المثقب العبدى مادحاً خالد بن عمار :

لايبالى طيّب النفس به تلف المال إذا العرض سلم(١)

فعبر بالتلف عن إنفاق المال فى المكارم والجود استعارة تصريحية تبعية وعبر عن الحفاظ على العرض من الامتهان بالسلامة وكأن العرض شىء محسوس يتعرض للفساد أو يصاب بالتحطم ونحو ذلك إبرازًا اللمعقول فى صورة المحسوس.

وفى قول حاجب بن حبيب الأسدى يمدح رجلين :

والمعطيان ابتغاء الحمد مالهما والحمد لا يشترى إلا بألمان(١)

استعار الاشتراء لمعنى الاستبدال على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، فالمنفق يستبدل الحمد باللوم ونعم ما أخذ وبئس ما ترك كما قال الله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فماربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾(٢).

وفى قول عمرو بن الأهتم يوصى ابنه ربعى بن عمرو

لقد أوصيت ربعى بن عمرو إذا حزبَتْ عشيرتَك الأمورُ

بألاتفسدَنْ ما قد سعينا وحفظُ السورة العليا كبير

---

(١) ص ٣١٩ من البحث .

(٢) الآية ١٦ من سورة البقرة

وإن المجـــــد أوله وُعـــــورُ ومصـــدر غَيّه كرمٌ وخـيرُ إلخ(١)

فقد عبّر الشاعر عن حدوث الشدائد عند العشيرة بحزب الأمور وأن الأمور تفحأ القبيلة وتدهمها ، من باب الاستعارة المكنية وعبّر عـن الحفـاظ علـى مكـارم الآباء بعدم إفساد ما سعى إليه ذووه وجعل للمجد مسلكاً وعرا كأنـه طريـق غـير ممهدة فوق جبل شاهق يحتاج صعوده إلى مشقة ، ثم جعـل إنفـاق المـال أو الجـود بالنفس فى مواقف تتطلبها شيئاً محسوساً يهاب أن يركبـه المتحـرج الخـامل النـؤوم وهو يقصد أن هذا الخامل لا يستطيع السعى إلى عظائم الأمور فعبر بالركوب عـن ذلك وكل الصور منتزعة من البيئة .

ومن أجمل الاستعارات قول عمرو بن الأهتم السعدى مخاطباً العاذلة .

ذرينى فإن البخـل يا أم هيثـــم لصـــالح أخلاق الرجال سروق(٢)

فهو يريد : أن البخل يسلب الأخلاق الحسنة ، فالتعبير بـأن البخـل سـروق جـاء علـى سـبيل الاسـتعارة المكنيـة ، ومعـروف قبـح السـرقة ، وشـناعتها ، وأن الإنسان إذا تعرى عن المجد لحقه العار .

وبذلك تبدو الصور التى نشـأت عـن طريـق الاسـتعارة محسوسـة ، مرتبطـة بالأشياء التى تحيط بالشاعر فى بيئته ، وظهرت الأمـور المعنويـة واضحـة للعيـان ، وظهرت ثقافتهم التى لا تعرف الفلسفات التى ننشأ عن عمق الفكـر ، والاتصـال بالثقافات الأخرى .

---

(١) ص ٣٢١ من البحث .

(٢) ص ٣٠٣ من البحث .

٣ – الكنايات :

أما الكنايات فقد لجأ إليها الشعراء كثيراً للتعبيرعن أغراضهم ومعانيهم التى يقصدونها وهم يمتلكون فيها ناصية البيان وليست متكلفة أو غريبة على أساليبهم الشعرية ومن ذلك : قول سنان بن حارثة المرى يتحدث عن كرمه :

قد يعلم القـوم إذ طالت غَزَاتُهمُ وأرملـوا الـزاد أنى منفد زادى(١)

وهو كناية عن أمر واقع وهو جوده بكل مالديه ، وقد يكون المعنى الحقيقى مرادا وهو أنه فى الغزوات يجود بكل مالديه من طعام والمعروف أن الكناية لا تمنع قرينتها إرادة المعنى الأصلى ، ومن ذلك أيضاً قول معاوية بن مالك فى الحديث عن كرمه أيضاً وحمله الديات :

أُعَوّد مثلهـا الحكمـاءَ بعـدى إذا ما الحـق فـى الأشـياع نابا

فهو يتحمل الديات ليقلده فيها غيره من العقلاء ، وهذا المعنى قد يكون حقيقياً ، والمعنى الكنائى هو أنه ينشر هذه الفضيلة وهى تحملُ الديات عن العاجزين عنها ، ويجعلها تشيع فى الناس وأنه مَثَلٌ يُحتَذَى

ومن الكنايات أيضاً قوله :

وأكفيهـا معاشـر قـد أرتْهُمْ مـن الجـرباء فوقهـم طبـاباً

فالمراد بقوله (أرتهم من الجرباء فوقهم طباباً) كما هو واضح (أرتهم النجوم فى السماء) وهو كقول القائل (لأرينّك الكواكب بالنهار) على معنى أن يُنزل به أقسى العذاب والشاعر هنا يريد أن يقول : إنه يكفى عشيرته شر هؤلاء الذين يحاولون إيقاع الظلم بهم .

---

(١)ص ٢٩١ من البحث .

وكذلك قوله :

وكنت إذا العظيمةُ أفظعتهم نهضْتُ ولا أدِبّ لها دِبابا(١)

فالشطر الثانى كناية عن سرعة الشاعر فى مساعدة قومه حين حلول الشدائد بهم .

وكقول المرار بن منقذ :

وكائن قد رأينا من بخيل يعلّك هجمةً سوداً وجُوناً(٢)

فقوله (يعلك هجمة) كناية عن أنه يحبس إبله ويحافظ عليها بخلاً بها وقد عبر بصورة الفعل وهو قيامه بعملية الربط من حين لآخر خوفاً أن تشرد واحدة أو تضيع وهى وإن كانت صورة للحفاظ عليها فإنه قصد الذم لحال من يبخل بماله .

ويقول ضمرة النهشلى عن كرمه :

وطارق ليل كنتُ حَمَّ مَبِيتَه إذا قلّ فى الحىّ الجميعُ الروافدُ

وإن يك مجد فى تميم فإنه نمانى اليفاعَ نهشلٌ وعطاردُ

وما جَمَعَا من آل سعدٍ ومالك وبعضُ زنادِ القوم غَلْث وكاسِدُ(٣)

ففى البيت الأول يكنى عن كرمه للضيفان فى الوقت الذى يبخل فيه الآخرون الذين لا يمدون يد العون للمحتاجين وفى البيت الثانى يقصد وصوله إلى المنزلة الرفيعة لأنه من قوم كرام ، ولا يريد أنه ارتفع فوق المكان العالى.

وفى البيت الثالث كناية فى قوله (وبعض زناد القوم غلث وكاسد) فالزند أو الزناد فى بعض الأحيان لا يورى ناراً والكساد معناه بوار السلعة ، ويقصد الشاعر معنى كنائيا هو أن بعض القوم ضئيل النسب، فعبر عن ذلك بما سبق وهو تعبير جيد.

---

(١) ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ من البحث .

(٢) ص ٢٩٤ من البحث .

(٣) ص ٢٩٩ من البحث .

ويقول معاوية بن مالك :

بل لا نقول إذا تبــوّأ حيــرة إنّ المحلة شــــعبُها مكدودُ

إذْ بعضهمُ يحمـى مراصدَ بيتِـه عن جارهِ وســبيلُنا مورودُ(١)

والبيتان كناية ذات تأثير قوى عن كرمه فـى الشـدة والرخـاء وهـى صـورة اجتماعية لحالة البخل وحالة الكرم فكثيرًا ما نرى البخلاء يغلقون بيوتهم ويسترون حاجاتهم حتى لا يراها أحد ولا ينال منها شيئاً والشاعر بخـلاف ذلـك فقـد تـرك الباب مفتوحاً للغادين والرائحين وهو ما يعطى لـلرائى أن يفكـر فـى الموازنـة بـين الصورتين .

والمخبَّل السعدى يتحدث عن العاذلة ويقول : إنها (ليـس لهـا بغـدٍ ولا مـا بَعْدَه عِلْمُ) ، وهو كناية عن نقص تجاربها فى الحياة ، ويقول أيضاً : إنه لا تخلّـده مائة من الإبل سمينة وهو لا يقصد الحقيقة إنما يريـد المعنـى الكنـائى وهـو أن كـثرة المال كالإبل ونحوها لا تزيد فى عمره شيئاً .

ثم يتحدث عن حلول الموت به فى البيتين الآتيين مخاطباً فيهما العاذلة :

ولئن بَنَيْتِ لـيِ المشــقرَ فـى هضبٍ تُقَصــر دونهَ العُصْــمُ

لَتَنَقّبَـنْ عنــى المنيّــــةُ إنّ اللّه ليــس كحُكمِه حُكْــمُ(٢)

فهو يقصد أن الموت يصل إليه فى أى مكان مهما يكن حصينـاً وقـد أبـدع فى جعل المنية تبحث عنه وتفتش حتى تصل إليـه علـى سـبيل الاسـتعارة المكنيـة ، وهو مرتبط بمعنى ورد فى القرآن الكريم(٣) .

---

(١) ص ٣٠١ من البحث .

(٢) ص ٣٠٣ من البحث .

(٣) ص ٣٠٢ من البحث .

ويقول المرقش الأصغر :

أجمِـــل العَيْـــش إن رزقـك آت لاَ يَرُدّ التّرقيحُ شَـرْوى فَتيـلِ(١)

وهو كناية عن أنه لا يستطيع أن يأخذ أكثر من رزقه مهما يجتهد ، ويتعـب فى السعى للحصول على المال والحفاظ عليه .

ومن الحوار البديع الذى يكنى به الشاعر عن كرمه ما قاله معاوية بن مـالك فى خطابه لزوجه سمية . فهى تصفه بالغواية حينمـا وجدتـه ينفـق مالـه ويتعـاوره الوافدون عليه ، وهو يرد عليهـا بأنـه يرحـب بإنفـاق المـال وأنـه سيظل متمسكاً بكرمه ، وإن سمته غياً فهو يقول :

قالتْ ســـمّيةُ قد غويـت ... إلخ

غى لعمرك لا أزال أعـــوده ... إلخ(٢)

وقد سمّى الكرم غيا كما سمته هى مشاكلة للفظهـا فـى حـوار لطيـف وهـو متمسك بموقفه .

وهذا عوف بن عطية يقول فى بعض شعره :

وقـالت كبيشـــة مـن جهلهـــا أشيباً قديماً وحلماً مُعارا(٣) إلخ

أربعة أبيات ، الأول منها كناية عن أنه قد خرف وسفه فهو يبذر المال وهو ينفى عن نفسه ذلك ويذكر أنه يحيىّ أصحابه ويمنح الجزيل وكل هذه المعانى يمكن

---

(١) ص ٣٠٥ من البحث .

(٢) ص ٣٠٥ من البحث .

(٣) ص ٣٠٥ من البحث .

أن تكون حقيقية وأن يراد المعنى الكنائى وهذا الحوار الشعرى سمة ومقدرة فنية لها أثر فى نفس السامع والقارىء وتخلق جواً من التشويق بخلاف سرد المعانى فلا يؤدى إلى مثل هذا التأثير النفسى الخلاب .

وهذا تأبط شرا يقول فى أثناء حديثه لعاذلته :

سـدّدْ خـلالك مـن مال تُجمعـه حتى تلاقى الذى كل امرىء لاقِ

لَتقْـرعنَّ علىَّ السِّـنَّ مـن نـدم إذا تذكّرْتِ يوماً بعض أخـلاقى(١)

ففى الشطر الثانى من البيت الأول كناية عـن موصـوف وهـو المـوت وفـى الشطر الأول من البيت الثانى كناية عـن صفـة وهـى النـدم وصـورة قـرع السـن متكررة فى البيئة العربية تعبيراً عن الندم وهى ترسم صـورة حركيـة وصوتيـة تـبرز الندم فى صورة مؤلمة ومثله عض الأصبع فى الندم أيضـاً وقـد جـاءذلك فىالقـرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه﴾(٢) .

ويقول ربيعة بن مقروم :

وإذا اللقـاح تروّحت بعشـية رَتكَ النّعـامِ إلـى كنيـفِ العرفَجِ

ألفيتنا للضـيف خيـر عمارة إن لم يكـن لـبن فعطف المـدمج(٣)

فهو يكنى عن شرفه وشرف عائلته بما يقدم للضيفان ويمكن أن يكون المعنى حقيقياً .

ومن الكنايات البديعة قول مرقش الأكبر فى هجاء قوم :

---

(١) ص ٣٠٩ من هذا البحث .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الفرقان .

(٣) ص ٣١٤ من البحث .

إن يُخْصبوا يَعْيَوا بخصبهمُ أو يُجْدبُوا فَهُمُ بهِ الأمْ

فهو كناية عن بخلهم وطغيانهم وقت الرخاء وكثرة بخلهم وقت الشدة ويمكن أن يكون المعنى حقيقياً أيضاً .

ومن الكنايات اللطفية فى التعبير عن الكرم وقد ترددت كثيرا فى بعض أشعارهم التعبير عن الكرم بملء القدر أو الجفنة ومن ذلك قول المثقب العبدى فى مدح خالد بن عمار :

مُتْرَعُ الجَفْنَةِ رِبْعِيُّ النَّدىَ حَسَنٌ مَجْلِسُهُ غَيرُ لُطُمْ

يَجْعَلُ الهَنْءَ عطَايا جَمَّةً ..... إلخ(١)

فالتعبيرات كلها كنائية وأكثرها دوراناً على الألسنة هى الكناية الأولى (مترع الجفنة) فالصورة التى رسمها الشاعر لم تكتف بالكرم بل شملت عدم المن والأذى والبشاشة وهى صورة من البيئة فحسن الاستقبال له أثره الطيب فى نفس الضيف والصورة توحى للسامع بطبيعة هذا الكرم وتؤثر فيه .

ومن الكنايات أيضاً قول المثقب العبدى عن بذله المال :

لا يُبالى طيب النفسِ بهِ تَلَفَ المَالِ إذَا العِرْضُ سَلِمْ(٢)

فالكناية فى قوله (لايبالى) تدل على أريحية فى الكرم وسعة باع .

والجميح يتفجع على نضلة بن الأشتر فيقول :

يا نضل للضَّيف الغريب ..... إلخ(٣)

---

(١) ص ٣١٦ من البحث .

(٢) ص ٣١٨ ، ٣١٩ من البحث .

(٣) ص ٣٢٠ من البحث .

فهو كناية عما كان عند المرثى من نجدته للضيف والجار والأرملة .

ويقول عبد قيس بن خفاف موصياً ابنه :

وَإذَا لَقيتَ البـاهشِينَ إلى الندى غبْراً أكُفُّهـمُ بقــاعٍ مُمْحِــلِ

فأعِنْهمُ وايْسِــرْ بِمَا يَسَروا بــه وإذَا هُمُ نَزَلوُا بضنْــكٍ فانــزِلِ(١)

فالشطر الثانى من البيت الأول كناية عن الفقــر المدقع والشطر الثانى من البيت الثانى كناية عن الوصول إلى المحتاجين والإحسان إليهم إذا اشتد بهــم الحالِ وأصل الضنك هو الضيق من كــل شىء والمراد هنــا : ضيق المعيشــة ، والصــورة رسمها الشاعر لجماعة الفقراء وقد أضرَّ بهم الفقر فهيئتهم رثــة تدعــو إلى الإشــفاق فى مكان مجدب لم يجدوا به ما يسد رمقهم وهى حالة تدعو إلى الرفق بهم وعــدم إهمالهم وتخفيف آلامهم وهى صورة مرئية مؤثرة لدفع بلواهم .

ويوصى الحارث بن حلزة ابنه ويخبره أنــه إذا لم يقــدم ألبــان نوقــه وينحرهــا للضيفان ربما ينهبها ناهب فيقول :

رُبَّ عشَــارٍ سَــوْف يَغْتَالُهــا لا مُبْطِــئُ الشَّــدِّ ولا عَــائِجُ(٢)

والشطر الثانى كناية عن موصوف وهو السارق أو الناهب .

٤ – المجازات :

وفى شعر الكرم مجازات عقلية كثيرة وبعض أنواع المجاز المرسل .

ومن المجازات العقلية قول عبد الله بن سلمة الغامدى :

---

(١) ص ٣٢١ من البحث .

(٢) ص ٣٢٣ من البحث .

ألا لم يَرْثُ فى اللزبات ذَرْعى سوافُ المال والعامُ الجديبُ(١)

فهو يذكر أن قلة المال وحلول الجدب لا يبطىء به عن الإنفاق فى قوله (لم يرث) فأسند الفعل إلى قلة المال والجدب وهو ليس له فى الحقيقة لأن قلة المال والجدب سبب فى بطء من يبطىء عن الإنفاق والمبطىء هو صاحب المال وفى قوله (العام الجديب) أسند الجدب إلى العام لأنه يقع فيه ويقول سنان بن حارثة المرى :

وقد يَسَرْتُ إذا ما الشَّول روَّحها بَرْدُ العَشِيّ بشفيانٍ وصُرَّاد(٢)

فالذين روحوها هم أصحابها وأسند الترويح إلى برد العشى لأنه سبب رواحها على سبيل المجاز العقلى .

ويقول المخبل السعدى على لسان عاذلته (٣):

(إنّ الثراء هو الخلود) (وإن المرء يكرب يومه العدمُ) فقوله (يكرب يومه العدم) معناه : أن الفقر يشقى صاحبه فأسند الفعل (يكرب) إلى العدم لأنه سبب لحصول الفقر له والذى يشقى ويسعد هو الله .

ومن ذلك قول متمم بن نويرة يتحدث عن كرم أخيه ويرثيه :

أبى الصبر آياتٌ أراها وإننى أرى كل حَبْلٍ بعد حبلِكَ أقطَعَا(٤)

فأسند الإباء إلى الصبر وإنما يأبى صاحبه بسببه

---

(١) ص ٢٩٠ من البحث .

(٢) ص ٢٩١ من البحث .

(٣) ص ٣٠٣ من البحث .

(٤) ص ٣١٥ من البحث .

ويقول الحارث بن حلزة فى وصيته لابنه :

بينـا الفتى يسـعَى ويُسـعَى له تـاح له مـن أمـره خالـجُ(١)

يقصد أتاه الموت فأسند تاح إلى الخالج وهو الموت والذى ياتى به حقيقة هو الله تعالى .

ومن ذلك أيضاً قول ربيعة بن مقروم :

ويأبى الذمَّ لى أنى كريم ..... إلخ (٢)

فأسند الإباء إلى الكرم(أنى كريم) مع أن الذى يأبى هو الشاعر بسبب كرمه.

ومن المجاز المرسل قول عمرو بن الأهتم :

عَجَبـاً ما عجبْتُ للفَـاقِد المـا ل وريبُ الزمان جَمُّ الخُبُـول(٣)

فعبر عن جامع المال بالفاقد له باعتبار ما يؤول إليه بعد موته ، ويرى النقـاد أن استعمال المجاز أبرع من استعمال الحقيقة لا سيما فى مجال المبالغة التـى يشتمل عليها التعبير الشعرى غالباً .

٥ – أساليب أخرى :

وقد استعمل الشعراء أساليب متنوعة كأسلوب الاستغاثة وما يدل عليه مـن تفجع بدلاً من الأسلوب المباشر فى قول الجميح :

يانضـل للضيـف ..... إلخ

---

(١) ص ٣٢٣ من البحث .

(٢) ص ٣٢٤ من البحث .

(٣) ص ٣٠٤ من البحث .

وأسلوب الاستفهام فى قول تأبط شراً (١):

(بل من لعذالة خذالة أشب) فهو يقصد من يخلصه منها لما توقعه عليه من لوم ، وأساليب الخطاب والمخاطبة من أساليب الشعراء المؤثرة .

أما عن الحكمة فى هذا الشعر فتبدو واضحة فى بعض المعانى السائرة التى تنم عن خلاصة من التجارب والأحداث التى تؤثر فى النفوس وتستولى عليها لثبوت صدقها ومطابقتها للواقع ، ومن ذلك قول المثقب العبدى :

أكرم الجار وأرعى حقه إن عرفان الفتى الحق كرم(٢)

فقد أكد حقيقة يمتدح بها الحق الذى للجار وبين أن معرفة الحقوق شىء جليل القدر فيه مروءة لا تقل عن الكرم مكانة بل هى نوع من أنواع الكرم وفضيلة من فضائله وما أعظم أن يعرف الإنسان الحق مطلقاً وقد أوصى الإسلام بالجار خيراً .

ومن ذلك أيضاً قول المخبل السعدى :

إنى وجدتُ الأمر أرشدُه تقوى الإله وشرُّه الإثم(٣)

فقد قرر الشاعر أن تقوى الله هى أرشد الأمور وأن البعد عنها شر وخيم وما قرره ناشىء عن تجربة فى أعمال الدنيا والسير فيها وهى حقيقة فصلاح الأمور متوقف على تقوى الله وهو مقتبس مما جاء به القرآن الكريم فى الحض على التقوى والبعد عن الآثام .

---

(١) ص ٣٠٨ من البحث .

(٢) ص ٢٩٢ من البحث .

(٣) ص ٣٠٣ من البحث .

ومن ذلك قول المثقب العبدى يمدح خالد بن عمار :

يجعـــل الهَـنْء عطـــايَا جمـــةً إنّ بعض المال فى العـــرض أمم

فساق معنى سائراً هو أن إنفاق المال حماية للعرض ليس إسـرافاً ولا خطـأ ، ويقول أيضاً فى هذه القصيدة :

أجعـــل المـــال لعرضـــى جُنـــة إنّ خـير المـــال ما أدّى الذمـــم(١)

فالمال الذى يدفع فى الحقوق هو خير مال .

ومن الحكم قول المرقش الأصغر :

أجمـــل العيـــش إن رزقـك آت لا يرد الترقيـــحُ شـــروى فتيـــلِ(٢)

فهو حكمة تتطلب من الإنسان ألا يجهد نفسه وألا يتكلف فـى السـعى لأن الرزق مكفول .

ومن ذلك قول عمرو بن الأهتم يوصى ابنه :

وإن المجـــد أولـــه وعـــور ومصـــدر غيـــه كـــرم وخـــير

وإنك لن تنـــال المجـد حتـــى تجـــود بمـــا يضـن به الضـــمير

بنفســـك أو بمالك فى أمـــور يهـــاب ركوبها الورع الدثور(٣)

فنيل المجد يحتاج إلى بذل الجهد ولا يتحقق إلا بالجود بالنفس أو بالمال .

إلى غير ذلك من الحكم .

---

(١) ص ٣١٩ من البحث .

(٢) ص ٣٠٥ من البحث .

(٣) ص ٣٢٢ من البحث .

رابعاً : الجرس الموسيقى :

يعبر الشعر عن العواطف الإنسانية التى تؤثر تأثيراً كبيراً فى النفوس ، وهـذا التأثير يعتمد على الاهتزاز الذى يعد الخاصية الأولى للوزن ، والشعر بأوزانه المختلفة وأنظمة إيقاعه المتعددة ليس إلا محاكاة لهذا الاهتزاز(١) .

(والحديث عن موسيقى الشعر لا ينفصل عن الحديث عن الأدوات الفنية الأخرى فلم تعد حلية ثانوية أو زينة عارضة فى البناء الشعرى بل هى السمة الفارقة بينه وبين النثر بما فيها من وزن وقافية وغيرهما من أنواع الإيقاع الشعرى وألوان الجرس اللفظية)(٢) .

ولا شك أن هذا الجانب الموسيقى تميل إليه النفوس ويحرك المشاعر والأحاسيس بماله من قوى خفية ساحرة تخلصنا من أدران مشاغلنا اليومية بمجرد أن تقرع مسامعنا وتنفذ إلى نفوسنا(٣) .

وقد عرفت تلك الأوزان الموسيقية فى العربية بعلم العروض ، ويرى بعض النقاد أن الشاعر يختار الأوزان المناسبة لأغراضه من بين بحور الشعر حينما يتحدث فى جد أو هزل وتكريم أو تحقير بحسب المقام الذى يتطلب وزنا دون آخر ، يقول حازم القرطاجنى (ولما كانت أغراض الشعر شتى وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم وما يقصد به الصغار

---

(١) قضية الشعر الجديد لمحمد النويهى ط دار الفكر ١٩٧١ ص٢٠ .

(٢) موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس ط ٥ سنة ١٩٨١ ص ٢١ .

(٣) اللغة والحضارة لمصطفى مندور ط منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٧٤ ص١٦.

والتحقـــير وجب أن نحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس(١) .

وفى هذا المعنى يقول أبو هلال العسكرى فى حديثه عن صناعة الشعر (إذا أردت أن تعمل شعراً فأحضر المعانى التى يريد نظمها فكرك وأخطرها على قلبك واطلب لها وزنا يتأتى فيه إيرادها وقافية تحتملها)(٢) .

ومعنى هـــذا أن الشاعر يختـــار الوزن الملائـم للغرض لتتكـــون حلقات من المقاطع متصلة ذات وقع ورنين معين ومن هنـــا ذكر بعض الباحثين أن الشعراء حين يعبرون عن حالة الحزن إنمـــا يعبرون عنها فى الأوزان الطـــويلة كما أنهم يختارون الأوزان القصيرة حين يريدون التعبير عن حالات السرور والبهجة إلا أن حالات الحزن والسرور ليست من نوع واحد بل تختلف فى المدى والعمق(٣) .

ويبدو أن البحور والأوزان ليس لها خصائص تجعلها صالحة لأغراض دون أخرى والمعول عليه فى التميز الموسيقى ليس كثرة المقاطع أو قلتها وإنما هو فى النغمة الخاصة التى تسود البيت أو القصيدة والتى تتصل بالمعنى ونوع العاطفة ، والشعر العربى القديم خير دليل على عدم وجود علاقة بين موضوع الشعر ووزنه لأن الشعراء كانوا يتغزلون ويمدحون ويفاخرون فى أكثر البحور الشائعة بينهم كما يبدو فى شعر المفضليات ولا سيما الرثاء وكذلك فى شعر المعلقات التى

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ط دار الكتب الشرقية بتونس ١٩٦٦ ص٢٢٦ .

(٢) الصناعتين ص١٤٥ .

(٣) موسيقى الشعر د. أنيس ط٤ الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٢ ص١٠٦ .

قيلت فى غرض واحد تقريباً(١) والقافية ركن أساسى فى بناء القصيدة العربية وجل النقاد القدماء يجعلونها من أهم عناصر الشعر المكونة له(٢) .

وقد تم اكتشاف القافية ومعرفتها قبل التوصل إلى معرفة الوزن وهذا الترتيب يتفق مع الطبيعة لأن إدراك التماثل بين كلمتين فى مقطع أول أو آخر أيسر بكثير من إدراك التماثل فى النسب بين مجموعتين من المقاطع(٣) .

ومن الواضح أن شعراء العربية نظموا أشعارهم وفق أوزان الشعر وموسيقاه التى تنبع من طبيعة العرب وإحساسهم وإيقاعهم الموسيقى هذا الإحساس أو ذلك الإيقاع الذى عرف بعمود الشعر عند النقاد واكتشف الخليل بن أحمد بحوره الخمسة عشر واستدرك الأخفش البحر السادس عشر (المتدارك) .

وباستعراضنا لشعر الكرم نلحظ أنه يجرى على البحور المشهورة مثل : الطويل والبسيط والرمل والوافر والمتقارب والكامل والخفيف والسريع إلى غير ذلك من البحور المشهورة عند العرب ونلحظ أيضاً أنهم استخدموا التام أو المجزوء فيما يصح أن يكون منه المجزوء كالكامل أو المشطور كالبسيط لكنهم اختاروا غالباً الأوزان الطويلة لكى تعبر عما أرادوا من أغراض تقتضى الاتساع فى العبارة وطول الحديث .

وقد كانت الأغراض التى طرقوها هى الفخر والمدح والوصية والرثاء والهجاء أحياناً وقد استطاعت هذه الموسيقى الشعرية أن تحمل معانيهم التى أرادوها وعبرت عن ذلك أصدق تعبير .

---

(١) المصدر السابق ص١٩٥ والتفسير النفسى للأدب لعز الدين إسماعيل ط دار الثقافة ص٧٧.

(٢) عيار الشعر ص١٠ .

(٣) موسيقى الشعر العربى لشكرى عياد ط دار المعرفة ط١ سنة ١٩٦٨ ص١٠٢ .

وإذا كان بعض النقاد فيما ذكرنا من قبل يفضلون أوزاناً خاصة لبعض الأغراض الشعرية دون الأخرى فإن شعر الكرم بلغته الأدبية عند شعراء المفضليات يؤكد أن بإمكان الشاعر أن يستخدم أى بحر من بحور الشعر وأى وزن من أوزانه فى أى غرض شعرى ولكن العبرة بالألفاظ ذات الإيحاء الشعرى والموسيقى التصويرية التى تحمل المعنى المراد مدحاً أو هجاء أو رثاء فيستطيع الشاعر أن يضعها فى أى وزن من هذه الأوزان فتعبر عما يريد مع التدفق الشعرى وإثارة الوجدان بما يجعلها تؤدى الغرض منها (فالشاعر يستطيع أن يربط بين الأوزان والأغراض بحسب طبيعة هذه الأغراض الانفعالية فالشاعر يختار الكلمات المعبرة ذات الوقع والرنين والنغم المؤثر ويلائم بينها ويحكم وضعها داخل سلسلة متصلة الحلقات متسقة المقاطع مما يثير الخيال ويسهم فى توليد الصور)(١) .

وهذا لا يقلل من قيمة اختيار الوزن الشعرى فإن موسيقى الأوزان العربية تثير فى النفس مظاهر الاستجابة للعاطفة الإنسانية وتجعلها أشد حدة وتأثراً واختار شعراء المفضليات غالباً القوافى المطلقة والموصولة والتى فيها ردف و الحروف المجهورة مما يجعل الموسيقى خلابة ويمكن الرجوع للقصائد للتدليل على ذلك بسهولة ويسر .

---

(١) شعر التفعيلة والتراث للنعمان القاضى ط دار الثقافة ١٩٧٧ ص٢٧ ، ٢٨ .

التجربة والعاطفة :

ولا شك أن هناك جانباً آخر يبعث على هذا التأثر وهو التجربة الشعرية، وعاطفة الشاعر ، ولا شك أن التجربة الشعرية تبين درجة ذوبان الشاعر مع أحداث حياته ويتوقف على درجة صدقه ما يحدث بين الشاعر والمتلقى من عمق التأثير والتأثر(١) .

وكلما سمت التجربة وعمقت إحتاجت إلى مقدرة تضارعها حتى تتحول إلى أدب يمثلها تمثيلاً صادقاً ويرضى عنها المنشىء تمام الرضا(٢) .

وكل ما فى الحياة من أحداث ومواقف ومشاهد صالح لأن يكون تجربة شعرية أو بلغة النقد العربى القديم موضوعاً شعرياً(٣) .

ومن الضرورى أن تعين الشاعر دقة الملاحظة وقوة الذاكرة وسعة الخيال وعمق التفكير حتى يستطيع استحضار التجربة الشعرية التى يتصورها عن قرب(٤).

وقد أثار بعض النقاد قضية تأثير العاطفة على نتاج الشاعر ودورها فى خلود أدبه لتكون نسيجاً يصل الشكل بالمضمون(٥) .

ويفكر الشاعر فى أمر من الأمور تفكيراً ينم عن عميق شعوره فيظل الشعر خاطراً ثم يتحول من رؤية إلى موقف ذى معالم وكيان ينمو بمقدار الرؤية وانكشافها لدى الشاعر(٦) .

---

(١) قضايا النقد الأدبى الحديث ص١١ بتصرف .

(٢) قواعد النقد الأدبى لمولفه لاسل آبر كرومبى ترجمة محمد عوض محمد ١٩٣٦ ص٥٠ .

(٣) التيارات المعاصرة فى النقد الأدبى للدكتور بدوى طبانة ص٥٩ ط سنة ١٩٦٣ .

(٤) قضايا النقد الأدبى الحديث ص٨٢ بتصرف .

(٥) المصدر السابق ص٨٠ والأدب العربى المعاصر ص٦٠ وما بعدها .

(٦) الشعر غاياته ووسائله لإبراهيم عبد القادر المازنى ط البوسفور سنة ١٩١٥ ص١٤.

ولا شك أن شعر الكرم موضوع دراستنا نتاج تجربة شعرية واقعية وتاريخية وتصوير الواقع الممزوج بعقيدة الشاعر وبروحه وفنه تضفى على الواقع المجرد بهاء(١) .

والصورة الواقعية الناشئة عن تجربة شعراء الكرم وعاطفتهم القوية قامت كما رأينا على بيان خلق من أخلاق المجتمع وفضيلة من فضائله فصورت الكرم والبخل وأثارت الوجدان وجاءت الصورة الشعرية مبينة دعائم هذا الخلق القويم الذى يتحلى به العربى الكريم .

وهكذا تنجح الصورة الأدبية المبنية على التجربة الصادقة والعاطفة المؤثرة وبذلك يقول نقاد الأدب(٢) .

وقد أقنعنا هؤلاء الشعراء بما أرادوا من شرح طبيعة النفس العربية التى جبلت على حب الخير والسعى إليه والصلة بين الإنسان وأخيه الإنسان لا سيما أقاربه وجيرانه وما يجب على الموسر بالنسبة للمعسر فى صورة أوضحت حقائق ورؤى واقعية نجحت فى أداء وظيفتها عن طريق الإقناع واستمالة المتلقين والتأثير فى عواطفهم وتحريك مشاعرهم دون سلطان على الشاعر سوى طبعه ووجدانه ومواهبه(٣) .

---

(١) الأسس الفنية للنقد الأدبى . د. عبد الحميد يونس ط دار المعرفة ١٩٥٨ ص ١١٢ .

(٢) الأدب وفنونه لعز الدين إسماعيل ط ١٩٥٥ ص٥٥ .

(٣) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث د . محمد نايل ط ١٩٦٥ ص١٢ .

الوحدة الفنية أو العضوية :

أما بالنسبة للوحدة الفنية فى العمل الأدبى وهى ما يراد بها بناء الفكرة ووحدة الموضوع فهذا يعبر عن المعانى التى تدور حولها القصيدة وطبيعة الأفكار ومدى تسلسلها وانسجامها(١) ، وإذا أمكن أن يتحقق ذلك فإن هذا يدل على ارتباط الشكل بالمضمون .

وإذا أمكن أن تسقط بعض أبيات القصيدة دون الإخلال بمعانيها أو مبانيها أو أمكن أن نقدم أو نؤخر فيها فلا نقول حينئذ بأن الوحدة قد تحققت فى القصيدة(٢) .

ومن المعروف أن الشعراء العرب القدامى كشعراء المفضليات لا نلحظ فى شعرهم غالباً الوحدة الفنية أو العضوية للقصيدة فالقصيدة الواحدة تشتمل على عدة أغراض وعلى كثير من الأفكار فى الغزل والشجاعة والوصف والوفاء والكرم والذم وغير ذلك من الأغراض ويمكن أن تقدم بعض الأبيات على بعض أو تحذف فلا يشعر القارىء أو السامع بخلل فى القصيدة وشعر الكرم من هذا النوع غالباً لأن بعض القصائد قد تتحقق فيها هذه الوحدة ومنها قصيدة عمرو بن الأهتم السعدى التى خصصها كلها فى الكرم(٣) .

ومطلعها :

ألا طرقت أسماء وهى طروق وبانت على أن الخيال يشوق

---

(١) قضايا النقد الأدبى الحديث ص٨٧ .

(٢) الأسس الفنية للنقد الأدبى ص١٠١ .

(٣) المفضليات ص١٢٥ .

وقد بدأها بالغزل كما نرى فى هذا المطلع وبعد ثلاثة أبيات أخذ يخاطب لائمته على الكرم وانتقل إلى وصف الضيف فى ليل الشتاء واستقباله له ثم تكلم عن الذبيحة وعرض وصفاً مفصلاً لذبحها ثم فخر بعد ذلك فى نهاية القصيدة بأصله ومكارم آبائه ، وربما كان فى تلك القصيدة بعض الترتيب لأفكارها ومعانيها بحيث يصعب تقديم بعضها على بعض وهى مثال حى للوحدة الفنية فى القصيدة العربية ، وقصيدة المخبل السعدى التى مطلعها :

ذكر الرباب وذكرها سقم فصبا وليس لمن صبا حلم(١)

مثال على عدم تحقق الوحدة الفنية فقد بدأها بالغزل ووصف دار المحبوبة ثم وصف محبوبته ووصف الطرق الموصلة إليها ، ووصف الناقة التى تحمله ثم انتقل فجأة إلى مخاطبة العاذلة التى تلومه على كرمه فى آخر القصيدة فى ثلاثة أبيات ، وهذا الشاعر سلامة بن جندل السعدى يبدأ قصيدته بالتحسر على الشباب فيقول:

أودى الشباب حميداً ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلوب(٢)

وبعد أربعة أبيات يتحدث عن كرمه وشرائه النوق بأغلى الأسعار إكراماً للجار والضيف والغريب والسائل فى ثلاثة أبيات ثم يتحدث عن العفة فى البيت الثامن وعن الشجاعة فى البيت التاسع وعن اهتمامهم بالشعر فى البيت العاشر وعن كثرة غزوهم فى البيت الحادى عشر ثم يصف الخيل إلى البيت العشرين ثم يتحدث عن النجدة وعن السيوف والرماح ويصف قوم الشاعر وشجاعتهم ويفخر بالأحساب وأن قومه يساعدون الفقراء فى السنة المجدبة فينتقل نقلة إلى

---

(١) المفضليات ص ١١٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٩ .

الكرم ويتحدث عنه مرة أخرى وفى البيت السادس والثلاثين وما بعده يتحدث عن نجدتهم للصريخ وأنهم أقوياء لا يردهم أحد .

وهذا النموذج الذى ذكرناه أصدق شاهد على عدم وجود الوحدة العضوية فى معظم الشعر القديم بصورة عامة وفى الشعر الذى درسناه بصورة خاصة ويمكن فى هذا الشعر وغيره نقل الأبيات من أماكنها فلا تختل القصيدة أو المعنى .

أهم المراجع

- اتجاهات وآراء فى النقد الحديث د. محمد نايل ط سنة ١٩٦٥م .
- الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى د. عبد القادر القط ط ١٩٧٨م .
- الأدب العربى المعاصر د. شوقى ضيف ط الثانية سنة ١٩٦١.
- الأدب المقارن د. محمد غنيمى هلال ط سنة ١٩٧٧م .
- الأدب وفنونه د. عز الدين إسماعيل ط ١٩٥٥م .
- الأسس الفنية للنقد الأدبى د. عبد الحميد يونس ط سنة ١٩٥٨م .
- الأصول الفنية للأدب للأستاذ عبد الحميد حسن .
- البلاغة تطور وتاريخ د. شوقى ضيف ط ٤ سنة ١٩٧٤م .
- التفسير النفسى للأدب د. عز الدين إسماعيل ط ٤ سنة ١٩٥٥م .
- التيارات المعاصرة فى النقد الأدبى د. بدوى طبانة ط سنة ١٩٦٣م .
- الحيوان للجاحظ جـ ٣ بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .
- دراسة الأدب العربى لمصطفى ناصف ط الدار القومية للطلبة بدون تاريخ .
- دراسات فى الشعر العربى المعاصر د. شوقى ضيف ط سنة ١٩٥٩م .
- الديوان ط القاهرة سنة ١٩٦٧م .
- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى تحقيق على فودة . المطبعة الرحمانية سنة ١٩٣٢م .
- شعر التفعيلة والتراث للنعمان القاضى ط دار الثقافة سنة ١٩٧٧ .

- الشعر غاياته ووسائله لإبراهيم عبدالقادر المازنى ط البوسفور . سنة ١٩١٥م .
- الصناعتين لأبى هلال العسكرى .
- الصورة الأدبية د. مصطفى ناصف ط سنة ١٩٥٨م .
- الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى عند العرب د. جابر عصفور ط الثانية لبنان سنة ١٩٨٣ .
- الصورة الفنية فى الشعر العربى الحديث د. نعيم عبد الباقى ط سنة ١٩٧٢م.
- الصورة فى شعر الديوانيين بين النظرية والتطبيق لمحمد على هدية ط سنة ١٩٨٤م.
- العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق تحقيق د. مفيد محمد ط ٤ سنة ١٩٦٣م .
- عيار الشعر لابن طباطبا . تحقيق محمد زغلول سلام ط ١٩٨٠م .
- فى النقد الأدبى د. شوقى ضيف ط دار المعارف .
- فى النقد الأدبى للأستاذ كمال نشأت ط سنة ١٩٦٥م .
- قضايا النقد الأدبى الحديث د. محمد السعدى فرهود ط سنة ١٩٦٨م مطبعة زهران .
- قضية الشعر الجديد لمحمد النويهى ط دار الفكر سنة ١٩٧١م .
- قواعد النقد الأدبى لمؤلفه لاسل آبر كرومبى ترجمة محمد عوض محمد ط سنة ١٩٣٦م .
- الكامل فى اللغة والأدب للمبرد تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة ط القاهرة بدون تاريخ .

- اللغة والحضارة لمصطفى مندور ط . منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٧٤م .
- المثل السائر لابن الأثير ط دار نهضة مصر للطبع والنشر سنة ١٩٧٣م .
- المفضليات للمفضل بن يعلى الضبى تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ط دار المعارف ط٧ سنة ١٩٨٣م .
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنى تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ط دار الكتب الشرقية بتونس ١٩٦٦م .
- موسيقى الشعر د. إبراهيم أنيس ط٤ الأنجلو المصرية سنة١٩٧٢م و ط سنة ١٩٨١م .
- موسيقى الشعر العربى د. شكرى عياد ط ١ دار المعرفة ١٩٦٨م .
- نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد العربى الحديث د. محمد نايل ط سنة ١٩٦٤م .
- نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق بونياكر ط ليدن سنة ١٩٥٦م .
- الوساطة بين المتنبى وخصومه . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى بدون تاريخ ط عيسى البابى الحلبى .